سلسلة مداخل العلوم

مبادئ علم العرفان

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

مركز نون
للتأليف والترجمة

مبادئ علم العرفان

اسـم الكـتاب:	مبادئ علم العرفان
إعـــــــداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نـشـــــــر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2014م - 1435هـ

سلسلة مداخل العلوم

مبادئ علم العرفان

مركز نون للتأليف والترجمة

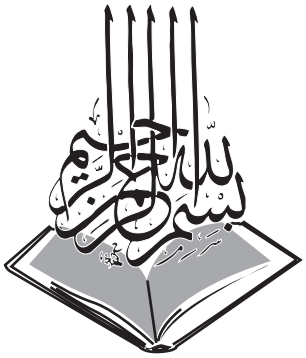
بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 11

الدرس الأوّل: علم العرفان 15

تعريف علم العرفان 17

أقسام العرفان 18

موضوع علم العرفان ومسائله 19

هدف العرفان الإسلامي 20

المنهج في العرفان 21

السيد علي القاضي الطباطبائي 25

الدرس الثاني: خصائص علم العرفان وتاريخه 27

الفرق بين التصوّف والعرفان 29

الفرق بين الأخلاق والعرفان 31

خصائص العرفان الإسلامي 32

بداية العرفان الإسلامي 34
الشيخ بهجت 39
الدرس الثالث: مصادر العرفان الإسلامي 41
ثلاثة نظريات حول العرفان 43
القرآن الكريم 44
الحديث 45
سيرة المعصومين عليهم السلام 46
الشريعة 47
ابن الفارض 50
الدرس الرابع: العرفان النظري 51
الرؤية الكونية العرفانية 53
نظرة العارف إلى الوجود 54
نظرة العارف إلى العالم 55
نظرة العارف إلى الإنسان 57
الخواجة عبد الله الأنصاري 61
الدرس الخامس: العرفان العملي (السير والسلوك) 63
مقدّمة 65
تعريف السير والسلوك 65
حقيقة السلوك عند العرفاء 66
شروط السلوك 67

المناسبة بين الحقّ والخلق 67
قمع هوى النفس 68
رفع الحجب 68
الشيخ والمرشد 69
صدر الدين محمد القونوي 71

الدرس السادس: الأحوال والمقامات 73
تعريف المقام والحال 75
أعداد المقامات والأحوال والاختلاف فيها 78
دور المقامات والأحوال في السير والسلوك 80
الحسن البصري 83

الدرس السابع: أوّل المنازل: اليقظة والتوبة 85
مقام اليقظة 87
حقيقة اليقظة 87
آثار اليقظة في وجود السالك 88
عوامل قبول نور اليقظة 90
مقام التوبة 90
آثار التوبة في وجود السالك 92
محيي الدين عربي 95

الدرس الثامن: آخر المنازل: الرضا والتسليم والتوحيد 97
مقام الرضا 99

مقام التسليم 101
مقام التوحيد 102
الجنيد البغدادي 105
الدرس التاسع: الكشف والشهود 107
تعريف الكشف 109
أقسام المكاشفات 110
دور المكاشفات في السلوك 111
طرق نفوذ الخطأ إلى المكاشفات 112
معايير صحّة المكاشفات 112
السيد حيدر الآملي 115
الدرس العاشر: عرفان الإمام الخميني قدس سره 117
التوجّه إلى الله تعالى 119
القرآن الكريم، المرجع الأساس للعرفان 120
الأدعية والمناجاة 121
الابتعاد عن حب الدنيا والرياسة 121
التصدّي للشأن السياسي والاجتماعي 123
الإخلاص 124
أداء التكليف الشرعي 124
ابن تركه الأصفهاني 127

الدرس الحادي عشر: مصطلحات علم العرفان 129
وحدة الوجود 131
الأعيان الثابتة 133
العوالم والحضرات 134
الأحديّة والواحديّة 134
الشريعة والطريقة والحقيقة 135
الفيض الأقدس والفيض المقدّس 135
الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ 139

المقدّمة

علـم العرفان مثل بقية العلوم الإسلامية التي نشأت في حضن الثقافة الإسلامية ونمت وتكاملت في ربوعها. وهو علم يهدف إلى أمرين أساسيين:

الأول: تفسيـر الوجود من خلال تقديـم رؤية كونية نظرية صحيحة ومطابقة للواقع حول الله والعالم والإنسان، وهو ما يصطلح عليه بعلم العرفان النظري. ففي هذا القسم يبحث العارف حول علاقات الإنسان مع نفسه ومع العالم ومع الله، وعمدة نظـره تتجه نحو علاقـة الإنسان بالله. وبـرأي العرفاء واعتقادهم فـإنّ الوصول إلـى هذه المرحلـة لا يكون إلا عبر إعمـال العقل والتفكير، بالإضافـة إلى القلب والمجاهدة والسير والسلوك وتصفيـة النفس وتهذيبها. فالأدوات المعرفية التي يعتمـد عليها العارف فـي تفسيره للوجود لا تعتمد على العقل فقط كالفيلسوف بل يتعداه أيضا إلى القلب والحركة الباطنية، بالاضافة إلى القرآن والسنة الشريفة.

الثانـي: تقديـم برنامج عملي تطبيقي لكيفية سير الإنسان المعنوي للوصول إلى الله سبحانـه وتعالى، وهو ما يسمى عند العرفاء بالعرفان العملي أو بالسير والسلوك العرفانـي. والعـارف في هذا القسم يتحدّث عن نقطـة البدء وعن المقصد وعن المنـازل والمراحـل ينبغي أن يطويها السالـك بالترتيب حتى يصـل إلى المنزل النهائي، وهو التوحيد.

وعلم العرفـان لكونه علماً إسلامياً، ويدرّس بشـكل رسمي في معاهدنا وحوزاتنا الدينيـة. ولكونـه علمـاً خاصـاً وليس متاحـاً لأي كان دخـول صرحـه إلا بعد تجاوز

المقدمـات المطلوبـة، وبعـد التأكّـد من حصـول الطالب علـى المؤهّـلات العلمية والسلوكية الخاصة. ونظراً للّغط الكبير الذي دار وما زال حول مدى صحّة هذا العلم وحجّيتـه، ومن أجل رفع اللّبس عن أهمّ التّهـم التي ألصقت به دون دراسة وتفحّص علمي ومنطقـي، كان لا بد من تعريف الشريحة المثقّفة والمتعلّمة على بعض جوانب هـذا العلم، من خلال التعريف به وبمسائله وشروطـه وأهدافه الحقيقية. فكان هذا الكتـاب إطلالة أولى تمكّن الطالب المتعلّم من تكوين تصوّر أولي ومنهجي حول علم العرفان بكلا قسميه النظري والعملي.

مركز نون للتأليف والترجمة

سلسلة
مداخل العلوم الإسلامية

مبادئ علم العرفان

الدرس الأوّل

علم العرفان

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى علم العرفان وأقسامه.
2. يبيّن موضوع علم العرفان وأهم مسائله.
3. يذكر هدف علم العرفان وغايته.

علـم العرفـان الإسلامي، واحـد من العلوم التـي نشأت في خضـمّ تعاليم الدين الإسلامي، واستقت منه أسسه وقواعده، وأخرجته في مرحلة لاحقة على نزول الوحي إلـى عالم الوجـود الخارجي، فأضحى منذ القرنين الثالـث والرابع على أقلّ تقدير، علمـاً قائمـاً بنفسه، يمتلـك كلّ المقوّمات الأساسيـة للعلم. وهذا يعنـي أنّ العرفاء حدّدوا لهذا العلم موضوعاً خاصاً به مستقلّاً عن كافّة العلوم، ومسائل يجري البحث فيهـا، وبيّنـوا المنهج المعرفي الـذي يمكن من خلاله القيام بمهمّـة الإثبات والنفي والقبول والرفض على مستوى المسائل.

تعريف علم العرفان

العرفان في اللغة مشتقّ من «عَرَفَ»، ويُعْنى به المعرفة. يقول ابن منظور: «**عرف: العرفـان: العلـم... عَرَفَـه، يَعْرِفُـهُ، عِرْفَة وعِرْفانـاً وعِرِفَّانـاً وَمَعْرِفَـةً واعترفه... ورجـل عـروفٌ: وعَروفة: عارف يعرف الأمور، ولا ينكر أحـداً رآه مرة... والعريف والعارف بمعنى مثل عليم وعالم... والجمع عرفاء...**»[1]

(1) ابن منظور، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، 1405، مادة عرف، ج 9، ص 236.

العرفان في الاصطلاح عبارة عن المعرفة الحاصلة عن طريق المشاهدة القلبية، لا بواسطة العقل ولا التجربة الحسّية... وهذا اللون من المعرفة يحصل في ظلّ العمل المخلص بأحكام الدين، وهو الثمرة الرفيعة والنهائية للدين الحقيقي[1].

وعلى هذا الأساس قدَّم أصحاب الاختصاص تعاريف متعدّدة للعرفان، من أبرزها ما جاء على لسان القيصري:

«**هو العلم بالله سبحانه، من حيث أسماؤه وصفاته ومظاهره وأحوال المبدأ والمعاد والعلم بحقائق العالم وبكيفيّة رجوعها إلى حقيقة واحدة، هي الذات الأحدية ومعرفة طريق السلوك والمجاهدة؛ لتخليص النفس عن مضايق القيود الجزئية واتّصالها إلى مبدئها واتّصافها بنعت الإطلاق والكلّية**»[2].

ويتّضح من خلال التعريف المتقدّم أمور، أبرزها: أقسام علم العرفان، موضوعه ومسائله.

أقسام العرفان

يظهر من التعريف المتقدّم أن العرفان يقسم قسمين: العرفان النظري، والعرفان العملي.

أمّا العرفان النظري، فهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وتجلّياته. ويُراد منه إعطاء رؤية كونية عن المحاور الأساسية في عالم الوجود، وهي «**الله**» و«**الإنسان**» و«**العالم**».

والعرفان العملي عبارة عن العلم بطريق السير والسلوك، فمن أين يبدأ، وإلى أين ينتهي، وما هي المنازل والمقامات التي يجب أن يسلكها العارف للوصول إلى

(1) اليزدي، محمد تقي مصباح، محاضرات في الإيديولوجية المقارنة، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الحق، قم، ط 1، ص 20 ـ 21.

(2) القيصري، شرف الدين محمود، رسائل القيصري، رسالة التوحيد والنبوة والولاية، ص 7، نقلاً عن: حسيني، السيد قوام الدين، العرفان الإسلامي، مركز الدراسات والتحقيقات الإسلامي، قم، ص 19.

الله تعالى، وكيفيّة مجاهدة النفس للتغلّب على ميولها وتحريرها من علائقها، حتى تستطيع طيّ المراحل والجدّ في سيرها إلى الله تعالى[1].

أمّا القسم الأول من العرفان، فهو يشبه علم الفلسفة لجهة محاولته تقديم تفسير للوجود، يُراد منه تقديم رؤية كونية عرفانية يكون لله فيها الأصالة الأساسية والوحيدة، وكلّ ما سوى الله ما هو إلا مظهر وتجلٍ لتلك الحقيقة الواحدة.

وإذا كان الفيلسوف يحاول تقديم رؤية ترتكز على محورية الله كواجب للوجود، وتكوين صورة جامعة عن الله وعلاقته بالكون، فقد استخدم الفيلسوف لذلك الدليل والبرهان؛ أمّا العارف في محاولته تقديم رؤيته الكونية هذه، فهو غير مهتمّ بالعقل والفهم، بل العارف يقدّم رؤيته ليصل إلى كنه وحقيقة الوجود[2].

أمّا القسم الثاني من العرفان؛ أي العرفان العملي، فهو عبارة عن ذاك الجانب الذي يبيّن العلاقات والواجبات المفروضة على الإنسان مع نفسه ومع العالم ومع الله. فيوضح فيه للسالك، من أين يجب أن يبدأ، وإلى أين يجب أن ينتهي، وكيف يسلك ليصل إلى تلك الحقيقة الواحدة، ويتطلّب الأمر توضيح المقامات والمنازل التي يجب قطعها للوصول[3].

موضوع علم العرفان ومسائله

يتّضح من التعريف السابق أنّ موضوع علم العرفان هو الحقّ تعالى. طبعاً يدرس العرفاء موضوعهم باعتبار تعيّنه بواحد من تعيّناته الخاصة، على أساس أنّ العرفاء يعتقدون بالوحدة الشخصيّة للوجود، وهذا يعني أنّ الموضوع الجدير بالبحث

(1) رحيميان، سعيد، مبادئ العرفان النظري، طهران، مؤسسة سمت، 1388، ط 4، ص 8.

(2) مرتضى، مطهري، العرفان، بيروت، دار المحجّة البيضاء، ط 1، 1992، ص 22. يشار هنا إلى نظرية العرفاء في الوجود حيث يعتقدون بأنّ الوجود هو الحقّ تعالى من باب أنّ الوجود لا يمكن أن يُحمل بالحقيقة إلّا على موجود واحد، هو الحقّ تعالى أي علّة العلل، حيث إنّ كلّ ما سواه يحتاج في الوجود إليه تعالى.

(3) المصدر نفسه، ص 14.

عندهم هو الله تعالى ومعرفة وجوده، ولكن إذا كان الله تعالى الكامل على الإطلاق، يفيض منه الوجود بمقتضى كماله، ثمّ إنّ الموجودات لا بدّ أن تتحرّك للوصول إلى الله تعالى. هنا لم يجد العرفاء بداً من دراسة المسائل الآتية:

1. توضيح حقيقة الوجود.
2. معرفة الله.
3. معرفة العالم.
4. معرفة الإنسان.

هدف العرفان الإسلامي

إنّ الإطلالة على هدف العرفان الإسلامي، يساعد - وإلى حدّ بعيد - في فهم حقيقته. فما هو الهدف من علم العرفان؟

إنّ الهدف الأساس لعلم العرفان الإسلامي، الوصول إلى الله تعالى والفناء فيه؛ أي الوصول إلى حيث لا يرى الإنسان إلا الله تعالى، ولا يبصر إلا وجهه جلّ وعلا. يعتقد العرفاء أنّ من يصل الى هذا المقام، أي لا يرى إلا الله تعالى، فقد وصل إلى مقام كان فيه غافلاً عن كلّ ما سوى الله؛ باعتبار أن الحق تعالى هو حقيقة الحقائق التي ليس وراءها حقيقة.

يبيّن العرفاء أنّ من يصل إلى أعلى المقامات الوجودية، فهو شخص يرى الله تعالى في كلّ شيء، وفي كلّ حركة من حركاته، أو حركات الأشياء الأخرى المحيطة به. ولكنّ السؤال: هل يبتعد هذا الشخص عن رؤية الأشياء؟ وهل ينظر إليها على أنّها معدومات؟ هنا يؤكّد الأستاذ الشهيد مطهري أنّ العارف في هذا المقام لا يغفل عن الخلق، بل يشاهد الخلق وحركاتهم إلا أنّه ينظر إلى الجميع على أنّها تحكي عن الإله وعن عظمة الخالق[1].

(1) مطهري، مرتضى، العرفان، ص 93-94.

ومن هنا يمكن القول: إنّ العرفان الإسلامي بقسميه يهدف إلى الوصول بالإنسان إلى أرقى مراتب الكمال الإنساني، والطريق إلى ذلك لا يحصل إلا بالمجاهدة والرياضة.

المنهج في العرفان

المنهج هو الطريق الذي يوصل إلى الهدف. وإذا كان لكلّ علم منهج، يمكن من خلاله إثبات أو نفي المدّعيات والفرضيات، فعلم العرفان أيضاً واحد من العلوم التي تمتلك منهجاً خاصاً. ولكن ما هو المنهج في علم العرفان؟

الواضح من خلال كلمات العرفاء أنّ المنهج والطريق الوحيد الموصل إلى الحقائق هو الكشف والشهود. والمقصود من الكشف والشهود مشاهدة الحقائق الغيبيّة الواقعة وراء عالم الشهادة. وأمّا السبيل إلى ذلك، فقد أشار العرفاء إلى أمور، من أبرزها تربية النفس وتهذيبها، والمواظبة على العبادات وكلّ ما يؤدّي إلى القرب من الله تعالى، وخلوص النفس له.

أطلق العرفاء على العلم الحاصل من الكشف والشهود، العلم الإلهي، وبيّنوا أنّ الطريق لذلك يجب أن يحصل في إطار التفرّغ للعبادة. يقول العارف السيّد حيدر الآملي: «**وأمّا كيفيّة تحصيل العلوم الحقيقية فهو في غاية السهولة؛ لأنّها موقوفة على فراغ القلب وصفاء الباطن، وهذا يمكن بساعة واحدة وبيوم واحد وبليلة واحدة...**»[1]

تحدّث العرفاء حول أهمّية هذا المنهج. طبعاً، لم يجعل العرفاء هذا المنهج مخالفاً، لمنهج العقل، بل قد يُفهم من كلام بعضٍ منهم أنّ منهج الكشف والشهود أرفع وأعلى، وهو الذي يساهم في كمال المعرفة الحاصلة بواسطة العقل. وبعبارة أخرى: المنهج العقلي مقبول، إلّا أنّه ليس كافياً في الوصول إلى المعرفة الصحيحة. ولعلّ كلام ابن سينا واضح في تبيين طبيعة العلاقة بين العقل والكشف، إذ يظهر

(1) الآملي، حيدر، جامع الأسرار ومنبع الأنوار في رسالة نقد النقود في معرفة الوجود، طهران، شركة المنشورات العلمية والثقافية،2002، ص 472.

منه انصراف الفكـر بالكامل إلى الحقّ، وهو الذي يساهم في الوصول إلى المعارف الحقيقية الصادقة.[1]

ومـن المحـال أن يعـرف ماهيته بطريـق النظر، فما لك يا أخـي، تبقى في هـذه الورطة، ولا تدخل طريق الرياضيات والمجاهدات والخلوات التي شرّعها رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم!»[2].

ولكن، لماذا فَضَّل العرفاء منهج الشهود على المنهج العقلي، والجواب يكمن فيما يأتي[3]:

1. إنّ المعارف التي يحصل عليها الإنسان بواسطة العلوم هي نتيجة الاستدلالات والتجـارب التـي عاشها البشـر طوال التاريـخ، ولطالما اكتشـف البشر خطأ معارفهـم؛ فقاموا بإصلاحها أو تعديلها أو إلغائهـا... لذلك يعتبر العرفاء أنّ مـا يحصل من معارف بواسطـة المناهج الموجودة، هي أمور لا تسكن النفس إليهـا ولا تستريح؛ لأنّ احتمال الخطأ فيها يبقى وارداً، وهذا ما لا وجود له في المعـارف الحاصلة عن طريق الكشف والشهود، طبعاً إذا كانت هذه المعارف تتطابق مع المعايير والضوابط التي وضعوها للصحّة والخطأ في الكشف.
2. الأمـر الثاني الذي يدعو إلى تفضيل المنهـج الشهودي، أنّ مناهج العلوم على اختلافهـا تؤدّي إلـى إدراك العالم وخالقه عن طريـق المفاهيم التي تحصل عليهـا بالأسلوب الحصولي، الـذي يعني حصول صورة المعلـوم عند العالم، وأمّـا المنهـج الشهودي فيجري مشاهـدة الأمور والحقائق عيانـاً دون توسّط صور.

(1) راجـع: ابـن سينا، الحسين بن علي، الاشـارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسـي، تحقيق سليمان دنيا، مؤسسة النعمان، 1992م، ج3، ص369

(2) جامع الأسرار،ص 491.

(3) المصدر نفسه، ص 492

أسئلة الدرس

1. ما معنى علم العرفان اصطلاحاً؟
2. ما هو موضوع علم العرفان وتحدث عن أهم مسائل هذا العلم؟
3. ما هو المنهج الذي اتبعه العارف ليصل إلى الهدف والغاية من العلم؟

المفاهيم الرئيسة

1. علم العرفان الإسلامي، واحد من العلوم التي نشأت في خضمّ تعاليم الدين الإسلامي، واستقت منه أسسه وقواعده.
2. العرفاء حدّدوا لهذا العلم موضوعاً خاصاً به مستقلاً عن كافّة العلوم، ومسائل يجري البحث فيها، وبيّنوا المنهج المعرفي الذي يمكن من خلاله القيام بمهمّة الإثبات والنفي والقبول والرفض على مستوى المسائل.
3. العرفان في اللغة مشتقّ من «عَرَفَ»، ويُعْنى به المعرفة. وفي الاصطلاح هو عبارة عن المعرفة الحاصلة عن طريق المشاهدة القلبية.
4. يظهر من التعريف المتقدّم أن العرفان يقسم قسمين: العرفان النظري، والعرفان العملي.
5. العرفان النظري، فهو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وتجلّياته.
6. العرفان العملي عبارة عن العلم بطريق السير والسلوك، والمنازل والمقامات التي يجب أن يسلكها العارف للوصول إلى الله تعالى.
7. موضوع علم العرفان هو الله تعالى ومعرفة وجوده. وأهم مسائله تدور حول حقيقة الوجود، معرفة الله، معرفة العالم، معرفة الإنسان.

8. الهـدف الأساس لعلم العرفان الإسلامي، الوصول إلى الله تعالى والفناء فيه؛ أي الوصـول إلى حيث لا يـرى الإنسان إلا الله تعالـى، ولا يبصر إلا وجهه جلّ وعلا.
9. المنهج هـو الطريق الذي يوصل إلـى الهدف. المنهج والطريـق الموصل إلى الحقائق عند العارف هو الكشف والشهود.

السيد علي القاضي الطباطبائي

هو السيّد علي بن حسين القاضي الطباطبائي، ولد عام 1285هـ. في مدينة تبريز، ونشأ في أسرة علمية موسومة بالفضل. يعتبر السيد علي أبرز العرفاء المتأخّرين، عاش أغلب حياته في النجف الأشرف، وكان أستاذاً في الأخلاق والسير والسلوك، تتلمذ على يديه الكثير من أعاظم العلماء والمراجع. توفّي في النجف الأشرف عام (1366هـ).

درس المقدّمات في تبريز، ثمّ انتقل في العام 1313هـ. إلى النجف الأشرف، وحضر دروس بعض العلماء الكبار، من أمثال الشيخ المامقاني وشيخ الشريعة الأصفهاني والشيخ محمد كاظم الخراساني...

عاش حياته فقيراً، مع ذلك فلم يبدُ عليه أيّ قلق، ولم تأخذ الحاجة المادّية حيّزاً من تفكيره، بل كان كلّ تفكيره وهمّه عبادة اللّه عزّ وجلّ، وكان يقول: الأفضل لي أن أبقى فقيراً؛ لأنّ في ذلك تحسّن حالتي الروحية والمعنوية.

كان السيد القاضي يتخفّى في عبادته إلا الفرائض، وكان له غرفة في مسجد الكوفة يتعبّد فيها أو يذهب إلى مسجد السهلة، وكان كثير الصمت يحي ليله بالتهجّد والعبادة، ونهاره بالتفكير والمطالعة.

كان السيد القاضي صاحب خلق رفيع، وقد هذّب نفسه تهذيباً كاملاً من رذائل الأخلاق، وتحلّى بالصفات المحمودة، وتحرّر من شهواته الحيوانية، فأصبح إنساناً ملكوتياً تتكشّف له الحقائق والأحداث. وقد نقل العلماء الكبار، أمثال السيد الخوئي والعلامة الطباطبائي، الكثير من الكرامات التي حصلت معه.

الدرس الثاني

خصائص علم العرفان وتاريخه

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن الفرق بين العرفان وكل من التصوّف والأخلاق.
2. يذكر نبذة عن خصائص العرفان الإسلامي.
3. يعرّف بشكل مختصر على تاريخ العلم.

الفرق بين التصوّف والعرفان

التصـوّف حركة ظهرت فـي العالم الإسلامي منذ القـرن الثاني الهجري، وذلك استجابـة لبعض النصوص الدينية التي تدعو الإنسان المسلـم للابتعاد عن الدنيا، والانشغال بالعبادة والطاعة.

والتصـوّف فـي اللغة مصدر علـى وزن تفعّل، فهو مصدر اشتق مـن اسم، ويعني لبـس الصوف، مثل: تقمّص؛ فهي تعني لبس القميص[1]. وتطلق في بعض معانيها على الميل: «**يقال**» صاف السهم عن الهدف؛ بمعنى «**مال عنه...**»[2] ويطلق التصوّف ويـراد به النسبة إلـى الصوف؛ لأنّ بعض الزّهاد اختاروا هذا اللباس للدلالة على الزهد، وقد يراد النسبة إلى «**الصُفّة**» أو إلى الصفاء.

جـاء في كتاب «**كشّاف اصطلاحات الفنون**» ما نصّه: «**في اللغة، التصوّف يعني ارتـداء الصـوف؛ وهذا نتيجة الزهد وترك الدنيا، وفي نظـر أهل العرفان تطهير القلـب مـن محبّـة ما سـوى الخالق، وتقويـم الظاهر مـن حيث العمـل والاعتقاد بالتكليـف أو المأمـور بـه، والابتعـاد عـن المنهـي عنـه، والالتـزام بما قالـه رسول الله** ﷺ**، فهؤلاء جماعة من المتصوّفة المحقّة**»[3].

(1) مقدّمـات تأسيسية في التصـوّف والعرفان والحقيقة المحمدية، ضياء الدين سجـادي، أحمد الاشتياني، كريم الاميري فيروز كوهي، دار الهادي، بيروت 2001، ص 4.

(2) لسان العرب، مادة (صوف)، ج 11، ص 102 ـ 103.

(3) التهانـوي، محمـد علي، كشّاف اصطلاحـات الفنون، حقّقه محمـد وجيه عبد الغني وغلام قـادر، طبعة الهند ـ انتشارات خيام، 1346هـ. ش، ج 1، ص 841.

قـد عرّفوا التصـوّف بتعاريف متعدّدة، مـن جملتها ما ذكر أبـو الحسن النوري: «**التصـوّف هـو الابتعـاد وتـرك العلائـق النفسيّـة فالمتصوّفـة هم الذيـن اطلقوا أنفسهـم من كدر البشريـة، وتخلّصوا من الآفات النفسيّة وهواها؛ وذلك من أجل أن يكونوا في مقدّمة الصفّ...**»[1].

أمّا ابـن خلدون، فيحدّد التصوّف بشكل أدقّ، ويقول: «**هـو العكوف على العبادة، والانقطـاع إلـى الله تعالـى، والإعراض عـن زخرف الدنيـا وزينتهـا، والزهد فيما يقبـل عليـه الجمهور من لذّة ومال وجاه...**»[2] وهناك العديد من العبارات الأخرى التي ذكرها الصوفية في تعريف التصوّف والصوفي[3].

أمّا ما هو الفرق بين التصوّف والعرفان؟

بدايـة لا بـدّ من الإشارة إلـى أنّ العرفان الإسلامي ظهر بدايـة على شكل حركة صوفيـة[4]، كان المـراد منها تربية النفـس وتهذيبها عملياً، وإبعادهـا عن كلّ ما له علاقـة بالدنيـا وزخارفها، ثـمّ تحوّلت هذه الحركـة الصوفية - ونتيجـة اتّساعها - إلـى أن تصبـح حركة أكثر تكاملاً، تمتلك نظرية خاصـة ورؤية محدّدة للّه والإنسان والوجـود، وبناءً على ذلـك. فإنّ الاختلاف بين التصـوّف والعرفان يعود إلى وجهتي نظر:

الأولـى: أنّ للعرفـان والتصـوّف معنـى واحداً مـن حيث الاصطلاح، ومـا يميّزهما هو اختلاف بسيـط. فقد درس الباحثون الإسلاميون العرفـان في بُعْدين: **الأوّل** باعتبـاره حركـة ثقافية معرفيـة، **والثاني** باعتبـاره حركة اجتماعيـة وُجِدت في

(1) مقدّمات تأسيسية، ص 8 ـ 9.

(2) ابـن خلـدون، عبد الرحمـان، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد، ط 1، لجنة البيـان العربي، القاهرة 1379هـ ـ 1960م، ص 157.

(3) لمزيد من المعلومات راجع: مقدّمات تأسيسية في التصوّف والعرفان والحقيقة المحمدية، المقال الأوّل.

(4) راجـع: حسينـي، قوام الدين العرفان الإسلامي (بالفارسية)، مركز الدراسات الإسلامية، ط 1، مطبعة سبهر، قم، ص 21 ـ 22.

العالـم الإسلامي بعد نزول الوحـي. وإذا كان العرفان يدخـل على كلا البعدين، فإنّ التصوّف يدلّ على البعد الاجتماعي للعرفان. وهذا يعني أنّ الحركة الصوفية هـي حركة اجتماعية وُجِدت في المجتمع الإسلامـي، كانت تدعو للعمل بالتعاليم الدينية فيما له علاقة بالزهد والابتعاد عن الدنيا...[1].

الثانيـة: أنّ العرفـان أعلـى من التصـوّف؛ لأنّ التصوّف أسلـوب وطريقة نابعة من العرفـان. وهذا يعني أنّ النسبـة بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق. فكلّ عارف متصوّف، وليس من الضروري أن يكون كلّ متصوف عارفاً.

ولعـلّ إلـى هذا البحـث أشار الشيـخ الرئيس ابـن سينا في حديثه حـول الزاهد والعابد والعـارف، حيث قال:[2] «**المُعْرِض عـن متاع الدنيا وطيّباتها يُخَصُّ باسم الزاهـد، والمواظـب على فعل العبادات، من القيام والصيـام ونحوها، يُخَصُّ باسم العابـد، والمنصـرف بفكـره إلى قدس الجبـروت، مستديماً بشروق نـور الحقّ في سرّه يُخَصُّ باسم العارف، وقد يتركَّب بعض هذه مع بعض**».

الفرق بين الأخلاق والعرفان

أشرنـا إلـى أنّ العرفان العملـي علم يوضّح كيفيـة السير والسلـوك للوصول إلى الحقيقـة المطلقـة، وهو بهذا الأسلوب يبيّـن ما ينبغي على السالـك أن يفعله وما لا ينبغي. وعلى هـذا الأساس، فالعرفان العملي لا يختلف كثيراً عن علم الأخلاق الذي هـو علم يبيّن كيفية اكتساب الفضائل والابتعاد من الرذائل. ومع ذلك يمكن الإشارة إلـى بعض العناوين التـي تشكّل الفـوارق الأساسية بيـن العرفـان، بشقّيه النظري والعملي، والأخلاق.

(1) راجع: مطهري، مرتضى، العرفان، ص 11 ـ 12.

(2) ابـن سينـا، الحسين بن علي، الإشـارات والتنبيهات، شرح نصير الدين الطوسي، تحقيـق سليمان دنيا مؤسسة النعمان، 1992م، ج3، ص369.

الفارق بين الاثنين هو ما عبّر عنه الشهيد الأستاذ مرتضى مطهري، عندما أشار إلى أنّ العرفان علم مَرِن، بينما الأخلاق علم جامد ثابت. والمقصود من ذلك أنّ العرفان العملي يبيّن عملية السير والسلوك عند العارف، حيث يجب تحديد نقطة البداية والمقصد والمنازل التي يجب أن يطويها العارف للوصول. وهذه المنازل لا يمكن أن تُطوى إلا بالتدريج، ومنزلاً بعد منزل. أمّا الحديث في الأخلاق. فليس حول منازل تتحقّق بالتدريج وواحدة بعد أخرى، بل الحديث حول سلسلة من الفضائل، من قبيل الصدق والعدل والعفّة والإحسان والإنصاف والإيثار... من دون وجود أيّ تراتبيّة في الموضوع.

العناصر الأخلاقية محدودة بمعانٍ ومفاهيم معروفة في الغالب، أمّا العناصر العرفانية فواسعة جداً وعميقة. قد نقول على سبيل المثال: إنّ الشخص الفلاني صادق، فهذا معنى واضح ومعروف، ويدلّ على حالة خاصّة عنده، أما عندما نقول: إنّ العارف تحصل له المقامات والأحوال الفلانية، كالرضا على سبيل المثال، فهذا ليس أمراً واضحاً محدّداً، ولا محصوراً بمفاهيم لفظية وغير لفظية.

ما تقدّم عبارة عن الفارق بين العرفان العملي والأخلاق، أمّا ما يميّز العرفان النظري عن الأخلاق، هو أنّ العرفان النظري مذهب فكري، يُعنى بتفسير الوجود ومعرفة الله والعالم والإنسان، فالعرفان النظري من هذه الجهة كالفلسفة، وهذا يخالف علم الأخلاق[1].

خصائص العرفان الإسلامي

يمتاز العرفان الإسلامي بمجموعة من الخصائص والعناوين التي تميّزه عن غيره من الحركات «**العرفانية**» التي وُجِدت على امتداد الأديان والمذاهب البشرية، ونشير هنا إلى أبرز هذه الخصائص:

(1) مطهري، مرتضى، العرفان، ص 15 ـ 17.

1. **محورية الله تعالى:**

يتمحور العرفان الإسلامي حول الله تعالى، فالعرفان بكلا قسميه مرفوض وغير صحيح إذا حذفنا منه الله تعالى. ومحورية الله تعالى تتضمّن الإيمان به تعالى، وفهم كافة الوجود في إطار وجوده، ومن ثمّ العمل والحركة أو السير والسلوك نحوه.

2. **الولاية:**

يعتبر السالك إلى الله في العرفان الإسلامي من أصحاب الولاية، وهذا يعني معرفة الإنسان الكامل والمعصوم وحبّه والالتزام العملي بسيرة أولياء الله تعالى.

3. **العمل بالشريعة:**

يمتاز العرفان الإسلامي بأنّه يتحرك طبقاً للشريعة؛ أي طبقاً للأحكام الفقهية الإسلامية. والشريعة تشكّل المحور الأساس الذي يستقي منه العرفاء مادّة سيرهم وسلوكهم، وبها يعرفون مدى الإصابة والخطأ فيهما. فالعرفان من دون الشريعة ضلال. عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا وأنّ شرائع الدين واحدة وسبله قاصدة؛ فمن أخذ بها لحق وغنم، ومن وقف عنها ضلّ وندم**»[1].

4. **العقلانية:**

العرفان الإسلامي ليس بعيداً عن العقل والعقلانية. فالعارف لا ينكر دور العقل، بل يضع المعرفة الشهودية والسلوكية في طول المعرفة العقلية. وبعبارة أدقّ: يستعين العارف بالعقل عندما يفرغ من عملية السير والسلوك، وينتقل إلى مرحلة إثبات الحقائق والكشفيات للآخرين؛ إذ إنّ إقناع الآخرين يحتاج إلى وسيلة مقبولة، وهي من دون شكّ العقل. طبعاً للعرفان خصائص أخرى، نكتفي بما ذكرناه منها.

(1) نهج البلاغة، الخطبة 12.

بداية العرفان الإسلامي

بـدأ العرفـان الإسلامي في مرحلـة متأخّرة علـى ظهور الحركـة الصوفية في العالـم الإسلامـي، والتي بدأت تباشيرهـا مع بداية نزول الوحـي، وهذا ما نجده فـي حال الزهّاد والعبـاد الذين شكّلوا نواة المتصوّفة فـي العالم الإسلامي، حيث عُرِفـوا في المرحلـة الأولى باسم الزهّـاد والنسّاك، وليس باسـم الصوفية. وكان اعتقـاد هـؤلاء الأشخاص صافيـاً، وإيمانهـم نقياً خالصـاً، لم تُدَاخلهـم الأفكار الفلسفيـة والكلاميـة، وكان جلَّ ما يريـدون، الاستجابة لنداء الوحـي، وأن يكونوا مـن عبـاد الله المخلصيـن.

اتّسعـت الحركـة الصوفية وانتشـرت، وأصبحت تجمع شيئاً فشيئـاً العدد الكبير مـن الأشخاص الذين شكّلـوا في مرحلة لاحقـة مدرسة خاصّـة، كان لهم أفكارهم وسلوكياتهم ومظاهرهم التي تميّزهم عن غيرهم، والتي انتهت في المرحلة اللاحقة علـى القرن السابـع، وأدّت إلى ظهور علـم العرفان. وبشكل عام يمكـن التمييز بين مراحل ثلاث للعرفان الإسلامي:

المرحلة الأولى: ظهور وتكامل العرفان العملي.

المرحلة الثانية: تدوين وشرح العرفان النظري.

المرحلـة الثالثـة: أفول مشايـخ الصوفية من الناحيتين العلميـة والعملية، والتوجّه نحو العرفان العملي القائم على أساس الفكر الشيعي.

المرحلة الأولى: تبدأ المرحلة الأولى من القرن الأوّل الهجري إلى القرن السادس، وتمتاز بالخصائص الآتية:

1. رواج وشيوع حالات التصوّف بين الأفراد.
2. بداية ظهور العرفان العملي من خلال ميل بعض المؤمنين نحو الزهد والعبادة (القرن الأول الهجري).

3. ظهور بعض المفاهيم التي راجت على ألسنتهم، كالعشق والحبّ الإلهيين، والتوجّه نحو باطن الشريعة (القرن الثاني الهجري).
4. الشروع بالاهتمام بالعرفان النظري (القرن الثالث).
5. تكامل العرفان العملي، وتدوين أصول السير والسلوك، والبدء بالحديث عن دور الشريعة في الوصول إلى الحقيقة (القرن الرابع).
6. وصول العرفان إلى أعلى مراتبه، وإقبال الناس عليه، وظهور مشايخ العرفاء وامتزاج أبحاثهم بالأفكار الكلامية والفلسفية (القرنين الخامس والسادس).

من أبرز الشخصيات في هذه الفترة: الحسن البصري، إبراهيم الأدهم، رابعة العدوية، أبو هاشم الصوفي، بايزيد البسطامي، بشر الحافي، السري السقطي، الجنيد البغدادي، الحسين بن منصور الحلاج، أبو سعيد أبو الخير، الهجويري، الخواجه عبدالله الأنصاري...

المرحلة الثانية: تتراوح هذه المرحلة بين القرنين السابع والعاشر من الهجرة، وتمتاز بانتشار العرفان وسيطرة العرفان النظري بالأخصّ، مع وجود شخصيات كبيرة من أمثال ابن عربي (م 638هـ) وظهور الشروحات على أفكار وكتابات ابن عربي، ووجود بعض الحركات الصوفية والعرفانية الشيعية. وفي هذه المرحلة أيضاً بدأ الجمع بين العرفان والدين، وفي هذا الإطار تأتي الجهود التي بذلها الشيخ البهائي (م1030هـ) وأمثاله، وقد أدّت في النهاية إلى أفول التصوّف.

من أبرز الشخصيات في هذه المرحلة: شهاب الدين السهروردي الزنجاني، ابن عربي، القونوي، جلال الدين الرومي، محمود الشبستري، السيد حيدر الآملي، صائن الدين علي بن تركه الأصفهاني، الفناري...

المرحلة الثالثة: بدأ مشايخ الصوفية يفقدون الأبعاد العلمية والثقافية التي كانت تحيط بهم، وغرق التصوّف في المظاهر والكثير من البدع. وفي هذه المرحلة؛

أي مـا بعد القرن العاشر الهجري، بدأ التخصّص في العرفان النظري، واتّسعت الدراسات التي تناولت ابن عربي، واقترب العرفان والتصوّف من الشرع والفلسفة والـكلام، وذلك مع وجود شخصيات هامّة في العالـم الإسلامي من أمثال صدر الدين الشيرازي (م 1050هـ. ق).

والخلاصـة، أنّ العرفان بدأ في القرون الأولى على صورة ممارسات يشكّل الزهد والعبادة جوهرها، ثمّ انتقل ليشكّل حالة وحركة خاصة لها ما يميزها، ومن ثمّ أصبح مدرسة علمية وفكرية لها أسسها ومبادؤها ونظرياتها[1].

(1) راجع: حسيني، السيد قوام الدين، العرفان الإسلامي، ص 25 وما بعدها.

أسئلة الدرس

1. ما هو الفارق الجوهري بين علم العرفان والتصوّف؟
2. عدد خصائص علم العرفان وتحدّث عن واحدة منها بالتفصيل.
3. عدد المراحل التاريخية للعلم العرفان وتحدث عن واحدة منها بالتفصيل.

المفاهيم الرئيسة

1. التصوّف حركة ظهرت في العالم الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري، وذلك استجابة لبعض النصوص الدينية التي تدعو الإنسان المسلم للابتعاد عن الدنيا، والانشغال بالعبادة والطاعة.
2. العرفان الإسلامي ظهر بداية على شكل حركة صوفية[1]، كان المراد منها تربية النفس وتهذيبها عملياً، ثمّ تحوّلت هذه الحركة إلى أن تصبح حركة أكثر تكاملاً، تمتلك نظرية خاصة ورؤية محدّدة للّه والإنسان والوجود.
3. العرفان أعلى من التصوّف؛ لأنّ التصوّف أسلوب وطريقة نابعة من العرفان. وهذا يعني أنّ النسبة بينهما نسبة العموم والخصوص المطلق. فكلّ عارف متصوّف، وليس من الضروري أن يكون كلّ متصوف عارفاً.
4. الفرق بين الأخلاق والعرفان هو ما عبّر عنه الشهيد الأستاذ مرتضى مطهري، عندما أشار إلى أنّ العرفان علم مَرِن فيه منازل ومقامات، بينما الأخلاق علم جامد ثابت يدور حول سلسلة من الفضائل.

(1) راجع: حسيني، قوام الدين العرفان الإسلامي (بالفارسية)، مركز الدراسات الإسلامية، ط 1، مطبعة سبهر، قم، ص 21 ـ 22.

5. يمتاز العرفان الإسلامي بمجموعة من الخصائص هي:

- محورية الله تعالى.
- الولاية.
- العمل بالشريعة.
- العقلانية.

6. بدأ العرفان الإسلامي في مرحلة متأخّرة على ظهور الحركة الصوفية في العالم الإسلامي. وبشكل عام يمكن التمييز بين مراحل ثلاث للعرفان الإسلامي:

المرحلة الأولى: ظهور وتكامل العرفان العملي.

المرحلة الثانية: تدوين وشرح العرفان النظري.

المرحلة الثالثة: أفول مشايخ الصوفية والتوجّه نحو العرفان العملي.

7. الخلاصة، أنّ العرفان بدأ في القرون الأولى على صورة ممارسات يشكّل الزهد والعبادة جوهرها، ثمّ انتقل ليشكّل حالة وحركة خاصة لها ما يميزها، ومن ثمّ أصبح مدرسة علمية وفكرية لها أسسها ومبادؤها ونظرياتها.

الشيخ بهجت

ولد الشيخ محمد تقي بهجت عام 1334هـ.، في عائلة متدينة في مدينة فومن، في محافظة كيلان. بدأ دراسته الأولى في مدينته، وفيها بدأ دراسة العلوم الإسلامية. هاجر في عمر الرابعة عشر إلى العراق، حيث بدأ الدراسة في كربلاء.

في العام 1352هـ. غادر كربلاء إلى النجف، حيث درس على أيدي أساتذة كبار، أمثال مرتضى طالقاني والميرزا النائيني والسيد ضياء الدين العراقي والسيد أبي الحسن الأصفهاني ومحمد كاظم الشيرازي. ودرس العلوم العقلية عند السيد حسن بادكوبه، والعلوم الأخلاقية والعرفانية عند السيد علي القاضي.

عاد إلى إيران عام 1364هـ.، واستقرّ في قم، حيث بدأ التتلمذ على أيدي أساتذة من أمثال السيد البروجردي، وكوه كمره اي. بالإضافة إلى ذلك بدأ التدريس في قم، حيث افتتح في منزله حلقة تدريس البحث الخارج. عُرف كمرجع تقليد بعد رحيل آية الله العظمى الآراكي. توفي آية الله بهجت عام 1430هـ.ق في قم.

عرف عن آية الله بهجت سلوكه العرفاني؛ فأصبح أستاذاً للسالكين في هذا الزمان، وقد ترك الكثير من الوصايا العرفانية الأخلاقية التي تشكّل الزاد للراغبين في سلوك طريق الحقّ.

ترك الشيخ بهجت العديد من الآثار أبرزها:

- حاشية على ذخيرة العباد للغروي الأصفهاني.
- دورة الصلاة.
- دورة الأصول.
- وسيلة النجاة.
- ثلاثة مجلدات في الشعر العرفاني، وغير ذلك.

الدرس الثالث

مصادر العرفان الإسلامي

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى القرآن الكريم كمصدر أساسي للعرفان.
2. يتعرّف إلى الحديث وسيرة المعصوم كمصدر أساسي للعرفان.
3. يتعرّف إلى الشريعة الإلهية كمصدر أساسي للعرفان.

ثلاثة نظريات حول العرفان

إنّ البحث عن مصادر العرفان الإسلامي من جملة الأبحاث ذات الأهمية الكبيرة؛ إذ يمكن من خلال ذلك معرفة أصالة هذا العلم ومقدار نسبته للإسلام، أو دخوله إلى العالم الإسلامي عبر الأديان والتيّارات الفكرية الأخرى. فالسؤال المطروح هنا: هل نشأ العرفان الإسلامي في ظلّ تعاليم الدين الإسلامي، أم أنّه تأثّر بغير الإسلام؟

يتحدّث الشهيد مرتضى مطهري عن نظريات ثلاث في هذا الإطار[1]:

1. **النظرية الأولى:** التي ينسبها الشهيد مطهري إلى العرفاء، تبيّن أنّ العرفان قد استمدّ كافة مواده الأساسية من دين الإسلام على أساس أنّ الفكر العرفاني يقوم على عقيدة التوحيد، وهي عقيدة قد اقتبس العرفاء كافة تفصيلاتها ممّا ذكر في دين الإسلام، هذا في خصوص العرفان النظري. أمّا في العرفان العملي، فيتحدّث العرفاء عن أنّهم استعانوا بالنصوص القرآنية وسيرة المعصومين عليهم السلام وكلماتهم؛ لتحديد إطار السير والسلوك، وما المفاهيم التي استعملها العرفاء في عملية السير والسلوك إلا استجابة لما ورد في النصّ الديني.
2. **النظرية الثانية:** المنسوبة إلى المستشرقين، تبيّن أنّ العرفان الإسلامي

(1) مطهري مرتضى، العرفان، ص 34 ـ 45.

دخـل إلى العالم الإسلامي من خارجه، وأوضحـوا أنّ جذور العرفان تعود إمّا إلــى المسيحية من خلال الارتباط بين المسلمين والرهبان المسيحيين، وإمّا أنّهـا تعود إلى تيّـارات إيرانية، وإمّا أنّها تعود إلى تطـوّر الفلسفة الأفلاطونية الجديـدة والتـي هي تركيب مـن أفكار أرسطـو وأفلاطـون وفيثاغورس. وقد أوضـح المستشـرق ماسينيـون الآراء في مصـادر التصـوّف فاعتبره دخيلاً علـى الإسـلام، مُسْتمدّاً إمّا مـن رهبانية الشام، وإمّا مـن أفلاطونية اليونان الجديدة، وإمّا من زرادشتية الفرس أو قيد الهنود[1].

3. **النظريـة الثالثـة:** تشير هـذه النظرية إلـى أنّ العرفان قـد استوحى أصوله الأولـى من الإسلام، وقد وضع العرفاء أصـول وقواعد وضوابط لهذه الحالة، ومع ذلك استفادوا من التطوّرات والتحوّلات الخارجية. وهذا يعني أنّ العرفان يعـود إلى الإسلام من حيث الأصول والمبـادئ، وإن كان العرفاء قد استعانوا بالتجـارب العرفانية للشعوب الأخرى ما دامـت لا تتعارض مع الأصول. ثمّ إنّ الشهيـد مطهري، وبعد عرضه للرأيين الأولين بيّـن أنّ المسلّم به أنّ العرفان قـد استمدّ مواده الأولى من الإسلام، حيث بدأ ذكر نماذج على ذلك[2]. وفيما يلي نركّز البحث على أبرز المصادر الإسلامية للعرفان.

القرآن الكريم

يوضّـح العرفاء أنّ العديـد من آيات القرآن الكريم تدعو إلـى الابتعاد عن الدنيا والعمل للآخرة، وهذا ما يجعل النفوس نقية بعيدة من الآثام والمعاصي. يضاف إلى ذلـك أنّ القرآن الكريم يصوّر وبشكل واضح الأفكار والعقائد والسلوكيّات التي يؤمن ويعمل بها العرفاء.

(1) كيلاني، قمر، في التصوّف الإسلامي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت 1962، ص 15.
(2) مطهري، مرتضى، العرفان، ص 34-45.

يتحدّث القرآن الكريم حول الله تعالى باعتباره خالق العالم، وهو الموجود في كلّ مكان: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[2].

ويتحدّث القرآن الكريم حول تزكية النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[3].

والقرآن يحثّ على الزهد والتوكّل والتوبة والصبر: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[6]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[7].

الحديث

يعتبر الحديث منبعاً أساسياً وكبيراً للعرفاء، فقد اعتمد العرفاء، في أغلب نظرياتهم ومفاهيمهم والمصطلحات التي استخدموها، على الحديث، ولا فرق في ذلك بين الأحاديث القدسية والأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام. لعلّ من أبرز الأحاديث القدسية التي تمسّك بها العرفاء، الحديث الآتي: «**كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق كي أعرف...**»[8]. وقد أراد العرفاء من خلال هذا الحديث تصوير حقيقة العلاقة بين الله والكون بكلّ ما فيه؛ إذ بناءً عليه يمكن استخراج أهمّ نظريات العرفاء؛ أي الوحدة الشخصية للوجود، وأنّ الكون بما فيه ما هو إلا مظهر وتجلٍّ للوجود الواحد.

(1) سورة البقرة، الآية 115.
(2) سورة الواقعة، الآية 85.
(3) سورة الشمس، الآيتان 9 ـ 10.
(4) سورة الحديد، الآية 20.
(5) سورة فاطر، الآية 5.
(6) سورة آل عمران، الآية 200.
(7) سورة التحريم، الآية 8.
(8) ابن عربي، الفتوحات المكّية، دار إحياء التراث العربي، ج 2، ص 112.

وفي مجال الفناء في الله يتمسّك العرفاء بالحديث الشريف: «**لا يزال العبد يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يسعى بها؛ فبي يسمع وبي يبصر، وبي ينطق، وبي يعقل، وبي يبطش، وبي يمشي...**»[1].

أمّا الأحاديث المنقولة عن المعصومين عليهم السلام فكثيرة؛ لعلّ من أبرزها قصّة الحوار بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشاب في المسجد، وقد سأله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول الله موقناً. تعجّب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من قوله، وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟ فسرد عليه الشاب حقيقة يقينه. عند ذلك خاطب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه: «**هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان**»[2].

جاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله عزّت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذوات عقولهم...**»[3].

سيرة المعصومين عليهم السلام

تشكّل سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام أحد مصادر العرفان الإسلامي، حيث كان المعصومون عليهم السلام المثال الأعلى في العبادة والزهد والتواضع والابتعاد عن الدنيا... في سلوكهم العملي وفي حياتهم مع المجتمع.

المعروف أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان كثير العبادة، وكان زاهداً متعبداً، حياته بسيطة، ولم يهتمّ بزخارف الدنيا وزبرجها. يروى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يتهجّد حتى تتورّم

(1) ابن عربي، التفسير، تصحيح وضبط الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، ط 1، 2001، ج 1، ص 35.

(2) الكليني، الكافي، تحقيق علي أكبر غفاري، ط 5، دار الكتب الإسلامية - طهران، ج 2، ص 53.

(3) نقلاً عن: مغنية، محمد جواد، نظرات في التصوّف والكرامات، بيروت، المكتبة الأهلية، ص 16.

قدمـاه. روي عـن إمامنا الباقر عليه السلام أنّـه قال: «**كان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عائشة ليلتهـا، فقالـت: يـا رسول الله لِمَ تُتْعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً**»[1].

وروي أنّ الإمام الصادق عليه السلام ارتدى لباس الصوف، فقال له الراوي: إنّ الناس لا يرغبون في رؤية من يلبس الصوف؛ فردّ عليه الإمام عليه السلام بقوله: «**إنّ أبي وعلي بن الحسين كانا أثناء الصلاة يلبسان خشناً. من الصوف. ونحن نفعل كذلك**»[2]، وفي هذا السلوك دلالة على زهد المعصوم عليه السلام في الدنيا.

والأخبـار فـي هـذا الخصوص كثيـرة نحن في غنـى عـن ذكرهـا؛ إذ إنّ حياة المعصوميـن عليهم السلام شكّلـت المصـدر الأساس لسلـوك العرفاء؛ لذلـك نراهم في الأمور التي كانوا يقومون بها ينسبونها إلى المعصومين عليهم السلام ليشيروا إلى صحّتها.

الشريعة

يعتقـد العرفـاء أنّ الغاية التي أُرسـل الأنبياء لأجلها، إيصـال الخلق إلى كمالهم المحـدّد لهم والمتناسـب مع استعدادهـم وقابليّاتهـم، ونقلهم من ظلمـات الجهل إلـى نـور الكمال والعلم. وأمّا هذه الغاية فلا تتحقّـق إلا إذا تمكّن الإنسان من تكميل قوّتـي العلم والعمل. فالإنسان يجـب أن يمتلك العزيمة للعمل بما جاء لأجله الأنبياء، حيـث يصـل إلى الكمال بواسطـة ذلك دون سواه. وهـذا يعني أنّ الإنسـان إذا عزم علـى المسير فـي طريق الشرع أمكنه الوصـول إلى حيث الكمال. ويبيّـن العرفاء أنّ

(1) الكافي: ج2، ص95.

(2) نقلاً عن: سجادي، ضياء الدين، مقدمات تأسيسية في التصوّف والعرفان والحقيقة المحمدية، ص 6. وجاء في روايـة أبي علي الأشعري عن محمـد بن عبد الجبار... قال: رأيت أبا عبدالله عليه السلام وعليه قميص غليظ خشن تحـت ثيابـه، وفوقها جبّة صوف، وفوقهـا قميص غليظ، فمسستهـا، فقلت: إنّ الناس يكرهـون لباس الصوف، فقـال عليه السلام: «**كلا، كان أبـي محمد بن علـي عليهما السلام يلبسهـا، وكان علي بن الحسيـن عليهما السلام يلبسها، وكانوا عليهم السلام يلبسون أغلظ ثيابهم إذا قاموا إلى الصلاة؛ ونحن نفعل ذلك**» (الكافي، الشيخ الكليني، ج 6، ص 450).

طريـق الشرع هو أقرب الطرق لتكميل قوّتـي العلم والعمل، والالتزام بضوابطه كفيل بإيصاله إلى ذلك[1].

مـن هنا، بحث العرفاء حـول أصول الاعتقادات، وبيّنـوا أعدادها، واستدلّوا على ضرورتهـا ووجودها، والنصوص التـي تؤكّدها، وكذلك رأيهـم العرفاني فيها، وإلى جانـب ذلك تحدّثـوا حول فـروع الاعتقـادات، وبيّنـوا ضرورتها ودورها فـي عملية السلـوك العرفاني. يقول السيد حيدر الآملي حول حقيقـة الشرع وضرورة العمل به: «**إنّ الله كامـل حكيـم، والأنبياء والرسل - كما سبـق - أطباء النفوس... وقوانينهم فـي الشرائـع كالمعالجيـن لمرض الناس... فلو عرفـوا هنـاك دواءً لدائهم أنفع وأنسـب مـن هذا لأمروا بـه، وأظهروه للناس ليستعملوه فـي إزاله أمراضهم؛ لأنّ ذلـك واجـب عليهم من باب اللطـف... فعرفنا أنّ هذا الـدواء المعبَّر عنه بالفروع كافٍ في إزالة مرض الجهل والكفر والشكّ والنفاق**»[2].

(1) حمية، خنجر، العرفان الشيعي، ص 587.

(2) الآملـي حيدر، أسرار الشريعة وأطوار الطريقـة وأنوار الحقيقة، تحقيق محمد خواجوي، ط 1، طهران، مؤسسة الدراسات والتحقيقات الثقافية، 1362 ش، ص 175.

أسئلة الدرس

1. هناك ثلاثة نظريات حول مصادر علم العرفان، أذكرها وبيّن الرأي الصحيح.
2. كيف يشكل القرآن الكريم مصدراً أساسياً لعلم العرفان الإسلامي؟
3. ما هي العلاقة الحاكمة بين العرفان الإسلامية والشريعة الإسلامية؟

المفاهيم الرئيسة

1. يوجد العديد من النظريات حول مصادر العرفان الإسلامي أهما النظرية الأولى التي ينسبها الشهيد مطهري إلى العرفاء، تبيّن أنّ العرفان قد استمدّ كافة مواده الأساسية من دين الإسلام.
2. أبرز المصادر الإسلامية للعرفان هي:

أ. القرآن الكريم. ج. سيرة المعصوم.

ب. الحديث. د. الشريعة.

3. يعتبرِ العرفاء أنّ القرآن الكريم يصوّر وبشكل واضح الأفكار والعقائد والسلوكيّات التي يؤمن ويعمل بها العرفاء.
4. يعتبر الحديث منبعاً أساسياً وكبيراً للعرفاء، فقد اعتمد العرفاء، في أغلب نظرياتهم ومفاهيمهم والمصطلحات التي استخدموها، على الحديث.
5. تشكّل سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام أحد مصادر العرفان الإسلامي، حيث كان المعصومون عليهم السلام المثال الأعلى في في سلوكهم العملي وفي حياتهم مع المجتمع.
6. يعتقد العرفاء أنّ طريق الشرع هو أقرب الطرق لتكميل قوّتي العلم والعمل، والالتزام بضوابطه كفيل بإيصاله إلى ذلك.

ابن الفارض

هـو حفص عمر بن أبـي الحسن علي بن المرشد بن علي، حموي الأصل، مصري الـولادة. عُرف بابن الفارضـ؛ لأنّ أباه كان يثبت الفروض للنسـاء على الرجال بين يدي الحكام. ولد عام 576هـ، وقيل عام 577هـ.

تعلّـم المقدّمات عنـد والده الذي كان مـن علماء ذاك الزمـان، وكان مقرّباً من الحكام الأيوبيين. سمع في القاهرة الحديث عن بهاء الدين قاسم بن عسكر ثمّ مال بعد ذلك نحو التصوّف، فاعتزل في جبل المقطّم منشغلاً بالرياضة والمجاهدة.

هاجـر إلى الحجاز، وبقـي مدّة 15 عامـاً يمارس الرياضة والتزكيـة في الجبال المحيطـة بمكّة، ورجع بعد ذلك إلى مصـر. توفي عام 636هـ.، ودُفن في سفح ذاك الجبل إلى جانب الشيخ الذي أرشده إلى مكّة ليرتاض فيها.

صحيـح أنّ ابـن الفارض واحد من أبرز عرفاء العالـم الإسلامي، إلا أنّه لا يمكن اعتباره صوفياً بالمعنى المتداول للكلمة، حيث نقل أبناؤه أنّه كان يرتدي أجمل الثياب ويستعمل العطر.

تعتبـر قصيدته التائية من أبرز الآثار العرفانيـة التي تركها، وهي مليئة بعبارات الصوفيـة، مـن أمثال الاتّحاد، الفنـاء، الوجد، الفقد، الفرق، الحـج، صحو الجمع، و... عارضـه الكثير من الأشخاص، واتّهمـوه بالاتّحاد والحلول، ولعلّ من أبرز الذين خالفوه تقي الدين ابن تيمية.

دوّنت شروحات كثيـرة على قصيدته، أبرزها: منتهى المـدارك لسعيد فرعاني، كشف الوجوه الغرّ لمعاني نظم الدرّ لعبد الرزاق الكاشاني.

الدرس الرابع

العرفان النظري

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن رؤية العارف الكونية للوجود.
2. يبيّن نظرة العارف للعالم وكل ما سوى الله.
3. يبيّن نظرة العارف للإنسان.

أشرنـا إلى أنّ العرفان النظري جزء مـن علم العرفان وهو يدرس أحوال الواجب تعالى من حيث أسماؤه وصفاته وتجلّياته وكيفية العلاقة بينها وبين الله تعالى، حيث يُتوقّـع من العرفـان النظري تقديم نظرية تبيّن تلك الأمـور؛ لذلك سنحاول في هذا الفصل الإطلالة على مجموعة من العناوين ذات العلاقة.

الرؤية الكونية العرفانية

المقصـود من الرؤيـة الكونية العرفانيـة، النظرية التي يقدّمهـا العرفاء، والتي تفسّر رؤيتهم لله تعالى والعالم والإنسان، بالاعتماد على المعرفة القلبية والشهودية، وكذلـك بالاعتماد علـى المعرفة العقليـة الاستدلالية، وهذا ما نشاهـده بوضوح في أفكار القيصري وابن تركة.

وبمـا أنّ العرفاء يعتقـدون بأنّ الوجود لله فقط، وأنّه هـو الموجود والوحيد الذي يصـح أن يُطلق عليه هذا المفهـوم، وأنّ كافة ما سواه ما هي إلا تجلّيات ومظاهر لله تعالى، فالرؤية الكونية العرفانية تبدأ من مسألة وحدة الوجود.

لقد بنى العرفاء كافـة أفكارهم على نظرية الوحدة الشخصية للوجود واعتبارية الكثرات. وبهذا المعنى يكون وجود الله تعالى هو الوجود والموجود الحقيقي والوحيد ومـا سواه ليـس إلا ظلاً وتجلياً الله تعالـى. ثمّ إنّ العرفاء يتحدثـون عن بعدين عند حديثهـم عـن ذات الإله: الأوّل هو كنه الذات التي لا يمكـن إدراكها، الخفيّة على كلّ

مـا سواه، والثاني البعد الظاهـر الذي يقبل التجلّي، وهو الذي يمكن معرفته وإدراكه للبشر.

أمّـا في ما يتعلّق بإثبات الوحـدة الشخصية للوجود، قـدّم العرفاء أبحاثهم على نحويـن: الأوّل: إثبات الوحـدة الشخصية عن طريق الكشـف والشهود، والثاني: عن طريق الاستدلال والبرهان العقلي.

الأوّل: هـو سيرة أكثر العرفاء الذين يعتقدون بأنّهم وصلوا إلى هذه المرحلة من التوحيد عن طريق الكشف والشهود. وبعبارة أخرى يعتقد العرفاء بأنّ مَنْ نوّر الله بصيرتـه يـرى أن ليس في الوجـود إلا الله، وكلّ ما عـدا ذلك فهو سراب وتجلّ[1].

الثانـي: أي طريق الاستدلال العقلي، فقد قدّم بعض العرفاء أدلّة برهانية لإثبات أنّ الوجود لا يمكن أن يكون إلا الواجب، وبما أنّ الواجب واحد فالوجود كذلك. طبعاً العرفاء يعتقدون بأنّ الطريق الأوّل لإثبات الوحدة الشخصية للوجود هو الأكثر قدرة على إيجاد اليقين، فهو كافٍ في الإيمان بهذه الرؤية، وأما الطريق الثاني فهـو لمن لم يتمكن من الاستفادة من مشاهدات العرفاء، بل هو للذين حصروا معرفتهم بالعقلية فقط[2].

نظرة العارف إلى الوجود

إنّ كلمـة «**الوجـود**» هي أهمّ العبارات عند العرفـاء أوضحها على أساس أنّ كافّة نظرياتهـم من دون استثناء تتمحور حوله، وهو عندهم الحقّ تعالى. ويوضح العرفاء أنّ الوجـود بديهـي وواضح بحيث لا يحتـاج الإنسان إلى دليل للقبول بـه، بل هو أمر بديهـي مقبول عند كافة العقول السليمة. ثمّ يبيّنون أنّ هذا الوجود واحد، بمعنى أنّه

(1) راجع: ابن عربي الفتوحات المكية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 3، ص 247.
(2) المصدر نفسه، ص 17 ـ 18.

يطلـق على كافّة الأشياء بمعنى واحد. من جهة أخرى فإنّ كلّ ما سوى الله تعالى ظلّ وتجلٍّ له، فوجوده وظلّيته تابعة لوجود الحقّ تعالى[1].

يتحدّث العرفاء حول أحكام الوجود، وهي على النحو الآتي:

1. الوجود بديهي، وليس هناك ما هو أوضح منه، ولا يحتاج إلى دليل لإثباته.
2. ليس للوجود سوى مصداق واحد، هو الحقّ تعالى.
3. إنّ كلّ كمال وخير يعود إلى الوجود؛ إذ لولاه لما ظهر الكمال والخير.
4. ليس للوجود الواحد مراتب، بعضها قوي وبعضها ضعيف.
5. الوجود مساوٍ للوحدة.
6. الوجود مساوٍ للوجوب[2].

نظرة العارف إلى العالم

العالـم عنـد العرفاء عبارة عـن كلّ ما يعلم به الله تعالـى؛ لأنّ العالم مأخوذ من العلامـة، وهي التي بهـا يعلم الشيء[3]. وبهـذا المعنى يصبح كلّ مـا هو موجود في العالم من مظاهر وتجلّيات علامات تدلّ على الله تعالى، فهي عوالم.

يتحـدّث العرفـاء عن عالميـن، الكبيـر والصغيـر. والعالم الصغير هـو الوجود الإنساني الذي استحقّ الخلافة الإلهية، والعالم الكبير هو الإنسان الكبير، أي الكون. فالكـون خلق علـى شاكلة الإنسان الصغيـر؛ لأنّ الصغير خليفـة الله والمظهر الأول والتجلي الأكمل[4].

(1) راجع : شرح فصوص الحكم، المقدمة، ص12
(2) رحيميان، سعيد، مباني عرفان نظري، ص 113 ـ 114.
(3) شرح فصوص الحكم، المقدمة، ص 89.
(4) المصدر نفسه، ص 91.

وللعالم في الرؤية العرفانية خصائص، أبرزها:[1]

1. **العالم مرآة وآية:** إنّ العالم مخلوق للحقّ تعالى، ومنه استمدّ كافة كمالاته، فهو يحكي عن كمالات الحقّ ويدلّ عليها؛ لذلك كان مرآة لكمالات الحقّ وعلامة تدلّ عليها.
2. **نظام العالم هو الأحسن:** بما أنّ العالم ظلّ الله ومظهر أسمائه، وبما أنّ كلّ اسم من الأسماء هو الاسم الأحسن بحكم الأسماء الإلهية الحسنى، فالنظام في العالم هو الأحسن. وإلى هذا يشير ابن عربي عندما يبيّن أنّ الحقّ تعالى إذا كان يشكل هويّة العالم، فأحكام وصفات العالم ليست إلا منه تعالى، وعلى هذا الأساس فليس من الممكن وجود عالم أعلى وأجمل منه؛ لأنّ هذا العالم ظلّ الرحمان[2].
3. **سريان الحياة والشعور في العالم:** يعتقد العرفاء أنّ العالم وكافة أركانه أعمّ من الجماد والنبات والحيوان أو غير ذلك تمتلك حياة وشعوراً. وهذه حقيقة يمكن فهمها بواسطة الكشف بداية، وبهذا نطقت الآيات الشريفة التي تحدّثت عن تسبيح كافة الموجودات[3].

يتحدّث العرفاء عن خمسة عوالم أساسية، مع اعتقادهم بأنّ العوالم لا تتناهى؛ لأنّ العلامات التي تدلّ على الحقّ تعالى لا تتناهى، والسبب في كونها خمسةً أنّه يمكن جمعها على سبيل التقريب؛ أي إنّ الاستقراء يبيّن أنّ الأنواع التي تندرج تحتها العوالم خمسة فقط.

(1) رحيميان، سعيد، مباني عرفان نظري، ص 222 ـ 225.
(2) ابن عربي، محي الدين، فصوص الحكم، الفص الأيوبي.
(3) شرح فصوص الحكم، المقدمة، ص 90.

والمقصود أنّ العالم الذي هو العلامة، يدلّ على الحقّ تعالى؛ فيطلق على ما تدلّ عليه العلامة الحضرة، وهذا يعني أنّ الحضرات الخمس هي الإله في ظهور وتعين خاصّين.

وأما الحضرات والعوالم فهي:

1. حضرة الناسوت، وعالمها عالم الأجسام والمواد.
2. حضرة الملكوت، وعالمها عالم المثال.
3. حضرة الجبروت، وعالمها عالم المجرّدات من العقول والنفوس.
4. حضرة الواحدية، وعالمها عالم الأعيان الثابته.
5. الحضرة الجامعة، وعالمها الإنسان الكامل.

نظرة العارف إلى الإنسان

يحتـلّ الإنسان موقعـاً هامّاً للغاية في الرؤية العرفانية تميّـزه عن باقي التجلّيات والمظاهـر. يعتقـد العرفـاء أنّ الإنســان الكامل يحتـلّ موقعاً أرفع وأعلـى من كافة العوالم؛ إذ إنّه الجامع لكافة كمالات العوالم الأربعة الأخرى.

الإنســان الكامل، إنسان نوعي وأكمل تجلّيات الحقّ، وهو الموجود، والذي سجدت الملائكـة له. وهو الذي يظهر فـي عالم الناسوت على شكل إنسان خارجي. من جهة أخـرى، فإنّ الاسم الأعظم الإلهـي، جامع لكافة صفات الحـقّ تعالى، ومظهر الحقّ يجـب أن يكون جامعاً لكافة كمالات المظاهر، وعليه فالإنسان الكامل إذا كان مظهر الاسم الأعظم فيجب أن يمتلك كافة كمالات المظاهر[1].

ويمتاز الإنسان الكامل بخصائص:

1. **الجامعية:** وقد تقدّم أنّه مظهر الاسم الأعظم الجامع لكافة صفات الكمال.
2. **الوساطـة:** يعتقـد العرفاء أنّ الإنسان الكامل هو أوّل مظهر للحق، تعالى؛ لأنّه خليفة اللّه، ولهذا فهو أكمل الموجودات، وهو واسطة في فيضانها عن الحقّ.

(1) المصدر السابق.

3. **الخلافة**: الإنسان الكامل، وعلى أساس أنّه التعيّن الأوّل، هو المظهر الوحيد الذي يستحقّ الخلافة الإلهية. ومن حيث خلافته الإلهية يمكنه التصرف في العالم بواسطة الأسماء الإلهية التي علمه الله إياها.
4. **الاختيار**: يعتقد العرفاء أنّ الإنسان من بين كافة موجودات العالم مظهر إرادة واختيار الحقّ تعالى، ومنشأ اختياره ليست سوى كونه مظهراً لأسماء الله بالأخصّ المريد والمختار[1].

(1) مباني عرفان نظري، ص 242 ـ 248.

أسئلة الدرس

1. ما هو المقصود من الرؤية الكونية العرفانية؟
2. ما هي أحكام الوجود عند العارف؟
3. ما معنى العالم؟ وما هي العوالم والحضرات عند العارف، عددها؟

المفاهيم الرئيسة

1. المقصود من الرؤية الكونيــة العرفانية، النظرية التي يقدّمها العرفاء، والتي تفسّــر رؤيتهــم للّه تعالــى والعالم والإنســان، بالاعتماد علــى المعرفة القلبية والشهودية، وكذلك بالاعتماد على المعرفة العقلية الاستدلالية.
2. وبما أنّ العرفاء يعتقدون بأنّ الوجود للّه فقط، وأنّه هو الموجود والوحيد الذي يصــح أن يُطلق عليه هذا المفهوم، فالرؤيــة الكونية العرفانية تبدأ من مسألة وحدة الوجود.
3. لقــد بنــى العرفاء كافــة أفكارهــم على نظريــة الوحــدة الشخصيــة للوجود واعتباريــة الكثرات. وبهذا المعنى يكون وجود اللّه تعالى هو الوجود والموجود الحقيقي والوحيد وما سواه ليس إلا ظلاً وتجلياً اللّه تعالى.
4. أمّا في ما يتعلّق بإثبات الوحدة الشخصية للوجود، قدّم العرفاء أبحاثهم على نحويــن: الأوّل إثبات الوحدة الشخصية عن طريــق الكشف والشهود، والثاني عن طريق الاستدلال والبرهان العقلي.
5. إنّ كلمة «**الوجود**» هي أهمّ العبارات عند العرفاء أوضحها على أساس أنّ كافّة نظرياتهم من دون استثناء تتمحور حوله، وهو عندهم الحقّ تعالى.

6. العالم عند العرفاء عبارة عن كلّ ما يعلم به اللّه تعالى؛ لأنّ العالم مأخوذ من العلامــة، وهي التي بها يعلــم الشيء[1]. وبهذا المعنى يصبح كلّ ما هو موجود في العالم من مظاهر وتجلّيات علامات تدلّ على اللّه تعالى، فهي عوالم.
7. يحتلّ الإنسان موقعاً هامّاً للغاية في الرؤية العرفانية تميّزه عن باقي التجلّيات والمظاهر. يعتقد العرفاء أنّ الإنسان الكامل يحتلّ موقعاً أرفع وأعلى من كافة العوالم؛ إذ إنّه الجامع لكافة كمالات العوالم الأربعة الأخرى.

(1) شرح فصوص الحكم، المقدمة، ص 89.

الخواجة عبد الله الأنصاري

هـو شيخ الإسلام أبـو اسماعيل عبد الله بن أبي منصور محمد. ولد عام 369هـ. فـي هرات. وهو من أحفـاد الصحابي أبو أيـوب الأنصاري. بدأ منـذ صغره دراسة العلوم الأدبية والدينية وبرع في علم الحديث.

تتلمـذ في التصوّف على أيدي متصوّفة معروفيـن، أمثال أبي الحسن الخرقاني. بقي طيلة حياته في هرات يشتغل بالتعليم والإرشاد.

كان الأنصـاري أستاذاً في العلـوم الإسلامية كالتفسير والحديـث والعقائد، ومع ذلك خالف أهل الكلام، واعتبر أنّ القرآن الكريم هو الدليل والمرشد الوحيد للمؤمن.

أدّى شيـوع الأشعريـة في زمان الغزنوييـن والسلاجقة إلى التضييـق على الشيخ الأنصاري، وقد بقي مدّة عام سجيناً في بوشنك.

فقـد فـي السبعين من عمـره البصـر، إلا أنّه استمـرّ بنشاطه، فـكان يملي على الطلاب ما يريده، توفي عام 481هـ.

ترك الخواجه عبد الله الأنصاري العديد من الكتب والرسائل العرفانية، أبرزها:

- منازل السائرين.
- طبقات الصوفية.
- زاد العارفين.
- مناقب أهل الآثار.
- ذم الكلام.
- المناجاة.
- رسالة القلب والروح وغيرها من الرسائل والكتب.

الدرس الخامس

العرفان العملي
(السير والسلوك)

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى السير والسلوك عند العارف.
2. يشرح حقيقة السير والسلوك عند العارف.
3. يتعرّف على شروط السير والسلوك عند العارف.

مقدّمة

يعتقد العرفاء أنّ لكلّ موجود من الموجودات حركة بها يطلب كماله، لا فرق في ذلك بين الموجودات السفلية المنتمية إلى عالم المادة، والعلوية الروحانية، حيث تسير بأجمعها إلى غاياتها الكمالية. وأعظم مقصد لها هو الحقّ تعالى، فهو غاية الغايات ومقصد المقاصد ونهاية النهايات. وقد أشارت العديد من الآيات الشريفة إلى هذه الحقيقة[1]. وأمّا سبب التوجّه نحو الله تعالى، فهو لأجل معرفته وعبادته بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

تعريف السير والسلوك

إنّ الوصول إلى المقصد الأعلى يقتضي اجتياز المنازل والمراحل والمقامات، وهذا ما يسمّى، في لسان العرفاء بالسير والسلوك[3]. وقد عرفوا السير والسلوك فقالوا.

(1) سورة الأنعام، الآية 38، سورة الحج، الآية 18، سورة النور، الآية 41، سورة الإسراء، الآية 44 وغيرها من الآيات الشريفة التي جعلها العرفاء مصدرًا لاعتقادهم بالتوجّه نحو الكمال.

(2) الآملي، حيدر، أسرار الشريعة، تحقيق محمد خواجوي، ط 1، طهران، مؤسسة الدراسات والمطالعات الثقافية، 1392هـ.ش، ص 7.

(3) رزق، خليل، العرفان الشيعي، أبحاث السيد كمال الحيدري، بيروت، دار الهادي، ط 1، 2008، ص 307.

السلـوك هو العلم والبرنامج الـذي يُبحث فيه عن كيفية منازل السير نحو القرب الإلهـي وخصائصه[1]. والسلـوك بهذا المعنى هو طيّ الطريق، أمّـا السير كما يعبّر صاحـب لبّ اللبـاب عبارة عـن مشاهدة آثـار وخصائص المنـازل والمراحل أثناء الطريق[2].

وقيل في تعريف السلوك أيضاً إنّه: هيئة نفسية روحية للترقّي والتكامل، والانتقال في الأصول والمقامات...»[3].

وبعبـارة مختصـرة يمكن القـول: إنّ السلوك عبـارة عن الطريقـة التي ينتهجها الشخص للوصول إلى المقصد والغاية؛ أي الله تعالى. فكلّ عارف إذا كان يعمل لأجل القـرب مـن الله والفناء فيه، فلا بـدّ أن يتّبع طريقة محددة توصلـه إلى المقصود، وليس إلى سواه.

وبمـا أنّ العرفاء يعتقدون بأنّ كافّة الموجودات تسير نحـو التكامل، وتتّبع طريقاً معيّنًا في الوصول إليه، فليس السير والسلوك مختصّاً بالإنسان، بل كافة المخلوقات تتوجّه إليه، وتطلب الوصول إليه.

حقيقة السلوك عند العرفاء

يبيّـن العرفاء أنّ السلوك هو الطريقة التي يقطع بها السالك المسير للوصول إلى الحـقّ تعالى، ويضيفـون بأنّ هذا السلوك هو في الحقيقة سلـوك معنوي، أي إنّه يتمّ بواسطـة النفس وليس البدن، ويوضّحون أنّ سلـوك النفس ومسيرها يقع ضمن أربع مراحل أطلقوا عليها الأسفار الأربعة، أي الرحلات الأربع[4]، وهي:

(1) المصدر السابق، ص 309.
(2) الطهرانـي السيـد محمد حسين الحسينـي، رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أولـي الألباب، ترجمة عباس نور الدين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1412هـ. ص 24.
(3) حمية، خنجر، العرفان الشيعي، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2004، ص 532.
(4) المصدر نفسه، ص 541.

الأوّل: السيـر إلى الله من منازل النفس والوصول إلى الأفق المبين. هنا يفترض أن ينسى الإنسان الظاهر المادي، وينطلق نحو الباطن المعنوي المختزن فيه.

الثاني: السيـر في الله بالاتّصاف بصفاته، والتحقّـق بأسمائه، والوصول إلى الأفق الأعلى، وهو نهاية الحضرة الواحدية.

الثالث: الترقّـي إلى عين الجمـع والحضرة الأحديـة، وهو المسمّـى عندهم بقاب قوسين.

الرابع: هو مقام زوال الاثنينية، والبقاء بالله بعد الفناء فيه.

شروط السلوك

تحـدّث العرفاء عن مجموعة من الشروط التي يجب توافرها ليتمكّن العارف من السلوك نحو الحقّ تعالى، وأبرز هذه الشروط:

المناسبة بين الحقّ والخلق

يقصـد العرفـاء من المناسبـة مطلق العلاقـة والارتباط بين شيئيـن، وهي أمر ضـروري بين المحـبّ والمحبوب. والمناسبـة أعمّ من المجانسـة، وتتحقّق بمحض الارتباط. يعتقد السيد حيدر الآملي أنّ العقل السليم يحكم بأنّه لو لم يكن بين الحقّ والخلق مناسبة أصلاً، لم يمكن تصوّر محبّة بينهما، وإذا كانت المحبة قائمة لم يكن بدٌ من وجود مناسبة بأيّ شكل وقعت، وعلى أيّ نحو تحقّقت[1].

والمناسبـة لا بدّ أن تحصل من جانب الخلق، لا مـن جانب الخالق؛ لاستحالة أن يحصل التبدّل في ذاته، هذا الإنسان الذي يجب أن ينزّه نفسه ويحصّنها لتصبح في مقام التناسب مع الخالق.

(1) أسرار الشريعة، ص 52.

وقد حدّد العرفاء المناسبة من وجهين:

الأول: أنّ الكثرة والتغيّر وكلّ ما يحيط بالعبد من خصائص لا يؤدّي إلى إيجاد تغيير في الحقّ تعالى.

الثاني: أن يتّصف العبد بصفات الحقّ، ويتحقّق بأسمائه كلّها. وقد أشار العرفاء إلى إمكان تحقّق الأمرين معًا. فلا بدّ للعارف من التعالي والترفّع عن حدود البشرية إلى صقع عالم القدس وحضرة التجرّد المحض على أساس أنّ المحبّ يجب أن يعمل كلّ جهده للوصول إلى المحبوب، ولا بدّ لذلك من الاتّصاف بصفات المحبوب وكمالاته[1].

قمع هوى النفس

إنّ هوى النفس هو الذي يجعل النفس تميل نحو شهواتها ومقتضياتها الطبيعية البدنية، وإذا مالت النفس إلى ذلك جذبت القلب إليها، فيموت وتنعدم حياته الحقيقية العلمية بالجهل. وأمّا إذا تمكّن السالك من إزالة النفس عن الميل للهوى، انصرف القلب إلى عالم القدس والنور والحياة الذاتية التي لا تقبل العدم والموت أصلاً. وإلى ذلك أشارت الآية الشريفة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾. يشير الآملي إلى أنّ إماتة النفس وأبعادها عن الهوى هو الذي يعبّر عنه بالتوبة، بمعنى أنّ من تاب فقد قتل نفسه وأماتها بالموت الإرادي الاختياري بقمع الهوى والشهوة[2].

رفع الحجب

إذا كان لا بدّ للسالك من السير نحو الكمال فقد يعترض طريقه بعض الحجب التي تمنعه عن رؤية المحبوب الحقيقي؛ إذ عدم رؤيته يمنع الشهود القلبي. لذلك

(1) حمية، خنجر، العرفان الشيعي، 549 ـ 551.
(2) أسرار الشريعة، ص 114.

لا يمكـن للعارف الوصول إلا إذا رفع الحجب. ويقصد العرفاء من الحجب والموانع، الأخلاق الذميمة كلّها وقبائح الصفات والملكات الرديئة. وأمّا وسائل الإزالة فكثيرة عندهم، ومن أبرزها: ترويض النفس على الفضائل، وتعويدها على محاسن السلوك وجميـل الصفـات، وكبح جماح النفس وقمـع هواها، وكذلك العزلـة والخلوة والعمل بمقتضى التكاليف الشرعية والتزامها[1].

الشيخ والمرشد

يعتقـد العرفاء أنّ السلوك لا يستقيم إلا إذا تـمّ بمساعدة شيخ ومرشد، باعتباره أنّـه الإنسان الكامل فـي الرؤية العرفانية، والسبب في ذلك أنّـه مطّلع على الحقائق وعـارف بالمقامات وكيفيـة قطعها والانتقال من واحد إلى آخـر، وأنّه يمتلك القدرة علـى تعريـف السالك وإيقافه فـي المواقف وإيصاله إلى المطالـب من دون تعب ولا عنـاء، وهـو الذي يعرف أيسر الطـرق وأسهلها في الوصول وبـه يَطْمئِنُّ السالك إلى وصوله[2].

يقـول العارف السيد حيدر الآملي: «**أما لو قصد السالك الطالب الغاية بنفسه، ومـن دون معاونـة شيـخ، فإنّـه يحتـاج إلـى معانـاة. وربما سلـك طرقًا متعـدّدة لم يستطـع أن يميّـز الأصلح بينها، وربّمـا سلك طريقاً معتقـدًا صلاحه فبان له بعد جهـد ومزاولـة أنّه لا يؤدّي إلـى شيء فسلك غيره، فإن وصل فلا بدّ أن يكون ذلك بعد جهد وعناء، وربّما لم يوصله شيء ممّا سلكه من طرق إلى مقصوده**»[3].

(1) حمية، خنجر، العرفان الشيعي، ص 558.
(2) المصدر نفسه، ص 559.
(3) الآملـي، حيـدر، جامـع الأسرار ومنبع الأنـوار، تحقيق هنري كوربـان وعثمان يحيى، طهـران، اللجنة الفرنسية للدراسات الإيرانية، 1318 هـ.ش، ص 246.

أسئلة الدرس

1. للسير والسلوك معان عديدة أذكر المعنى الصحيح عند العارف.
2. للسير والسلوك عند العارف أربعة مراحل تحدث عنها.
3. عدد شروط السير والسلوك عند العارف وتحدث عن واحدة منها.

المفاهيم الرئيسة

1. يعتقد العرفاء أنّ لكلّ موجود من الموجودات حركة بها يطلب كماله، حيث تسير بأجمعها إلى غاياتها الكمالية.
2. أعظم مقصد للموجودات هو الحقّ تعالى، فهو غاية الغايات ومقصد المقاصد ونهاية النهايات. وقد أشارت العديد من الآيات الشريفة إلى هذه الحقيقة.
3. إنّ الوصول إلى المقصد الأعلى يقتضي اجتياز المنازل والمراحل والمقامات، وهذا ما يسمّى، في لسان العرفاء بالسير والسلوك.
4. السلوك بهذا المعنى هو طيّ الطريق، أمّا السير كما يعبّر صاحب لبّ اللباب عبارة عن مشاهدة آثار وخصائص المنازل والمراحل أثناء الطريق.
5. يبيّن العرفاء أنّ السلوك هو في الحقيقة سلوك معنوي، أي إنّه يتمّ بواسطة النفس وليس البدن، ويوضّحون أنّ سلوك النفس ومسيرها يقع ضمن أربع مراحل أطلقوا عليها الأسفار الأربعة.
6. تحدّث العرفاء عن مجموعة من الشروط التي يجب توافرها ليتمكّن العارف **من السلوك نحو الحقّ تعالى، وأبرز هذه الشروط:**

أ. المناسبة بين الحقّ والخلق.
ب. قمع هوى النفس.
ج. رفع الحجب.
د. الشيخ والمرشد.

صدر الدين محمد القونوي

مـن أهل قونيّة (تركية) وهو تلميذ ومريد وابن زوجة محي الدين العربي. عاصر الخواجة نصير الدين الطوسي والشاعر المولوي الرومي. وجرت بينه وبين الخواجة الطوسي سلسلة من المراسلات وكان الطوسي يكن له الاحترام، كذلك كانت تربطه علاقـة حميمة مع المولوي في قونيـه. كان القونوي يؤم المصلّين في الجماعة فيأتي إليـه المولـوي، والظاهـر- كما ينقل- أن المولـوي كان تلميـذه وأن العرفان المحي الدينـي الذي يظهر في أشعـاره إنما كان نتيجة الدروس التـي تلقاها منه. يروى أنه دخـل ذات يـوم على محضر القونـوي. فتحرك القونـوي من مسنـده وأعطى مكانه للمولوي ليجلس. قال المولوي: بماذا أجيب الله إذ أنا جلست مكانك؟ فأبعد القونوي المسند وقال: إن المسند الذي لا تجلس عليه حقيق علي أن لا ألمسه.

يعتبـر القونـوي أفضـل شارح لأفكار محـي الدين، ويمكـن القول أنه لـو لم يكن موجـوداً لما أمكـن فهم محي الدين. وتعرُّف المولوي علـى مدرسة محي الدين إنما كان من خلال القونوي، فعندما يقال أن المولوي كان تلميذ القونوي فذلك بما يرتبط بأخـذ أفـكار محي الدين: هـذه الأفكار التي ظهـرت في المثنوي وفـي ديوان شمس (التبريـزي). وتعتبر كتب القونـوي من الكتب الدراسية العرفانيـة في الحوزة طيلة ستة قرون. من كتبه المعروفة: مفتاح الغيب، النصوص، الفكوك. توفي القونوي سنة 672 (أي سنة وفاة المولوي والخواجة نصير الدين) أو سنة 673هـ.

الدرس السادس

الأحوال والمقامات

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى كل من الحال والمقام عند العارف.
2. يعدّد أنواع المقامات والاختلاف فيما بينها.
3. يبيّن العلاقة بين المقامات والأحوال والسير والسلوك عند العارف.

يعتبر بحث الأحوال والمقامات من الأبحاث الهامّة في الفكر العرفاني؛ لما لذلك مـن أثر على عملية السير والسلـوك، إذ بهما يعرف السالك كيفيـة السير والسلوك والمواطن والمنازل والحالات التي توصله إلى المقصد النهائي.

تعريف المقام والحال

1. المقام:

المقـام هو المـكان الذي يقيم به العـارف، وهو القيـام بنفسه، وقد ذكـروا للمقام تعاريـف متعدّدة، مـن أبرزها: مُقام بضم الميم يعني الإقامـة، ومَقام بفتح الميم يعني محلّ الإقامة، وهذا المعنى في لفظ المفاهيم خطأ. ففي اللغة العربية مُقام بضم الميم؛ يعني الإقامة ومكان الإقامة، ومَقام بفتح الميم يعني القيام، ولا يعني المكان الذي أقيم فيه، فهو طريق الحقّ وإعطاء الحقّ حقّه في هذا المقام، إلى أن يدركه الكمال[1].

وقيـل أيضاً: «**المقام ما يتحقّق به العبد بمنازلته فـي الآداب، ممّا يتوصّل إليه بنـوع تصـرّف، ويتحقّـق به بضرب تطلّـب ومقاساة تكلّف. فمقـام كلّ أحد موضوع إقامتـه عنـد ذلك وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوفِ أحكام ذلك المقام**[2].

(1) كشف المحجوب للهجويري، ص 224، نقلاً عن: مقدّمات تأسيسية، ص 23.

(2) القشيـري، عبـد الكريم، الرسالة القشيرية، تصحيح بديع الزمـان فروزانفر، مركز النشر العلمي والثقافي، ط 2، 1361، ش، ص 124.

والواضح من خلال هذا التعريف أنّه يبيّن أنّ العبد في طريقه إلى الكمال يجب أن يرتقي درجاته، وذلك لا يتمّ إلا من خلال إدراك كلّ واحد من تلك الدرجات والمنازل والوصول إليها، وهذا يقتضي العمل على مستوى العبادة والرياضة والانقطاع، وبعبارة أخرى السير والسلوك.

تحدّث العرفاء على خصائص المقامات، ومن أبرزها:

- أنّ المقـام ثابـت مستقرّ لا يطـرأ عليه التغيير، وعلى العبـد أن يدرك المقامات ويجهـد نفسه للوصول إليها؛ لذلك قالـوا: إنّ المقامات مكاسب؛ أي هي أمور يجب أن يكتسبها السالك.
- إنّ وصول العبد السالك إلـى المقامات وعبوره عنها لا يجري إلّا مع تعب وجهد؛ لأنّه لا يمكن أن يصل إلى مقام أو يرتقي إلى آخر إلا بعد عمل دؤوب ومقاساة تكلّف.
- أضاف العرفاء، أنّ صاحب المقام مُمكّن في مقامه؛ بمعنى أنّ الذي يصل إلى مقام معيّـن فـلا يمكن أن يـزول أو يتنزّل عنه، علـى أساس أنّ شخصيتـه المعنوية قد تماهت وتمازجت مع ذلك المقام حتى أصبح هو بعينه، فالتائب من الذنب حقيقة لا يمكن له أن يعود إلى ارتكاب المعاصي؛ لأنّ التوبة قد خالطت لحمه ودمه.
- المقامـات مترتبة صعودًا؛ بمعنـى أنّ كلّ مقام هو أعلى من الآخر، ويكون جامعاً لكمالات الأدنى، فالذي يصل إلى مقام الزهد فقد عَبَرَ عن مقام التوبة، ومقام الزاهـد يتضمّن التوبـة؛ بمعنى أنّ الزاهد لا يمكن أن يكـون إلّا تائبًا، وهكذا، حتى تصل إلى أعلى المقامات، فيكون قد جمع كمالات المقامات الأولى.

2. **الحال:**

الحـال عبارة عن حالة معنوية تعتري العبد السالـك أثناء سلوكه إلى الله تعالى. جـاء فـي تعريف الحال: «**الحـال عند القـوم معنى يَرِد علـى القلب مـن غير تعمّد**

منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم في طرب أو حزن أو بسط أو قبض...»[1].

وفـي مصبـاح الهدايـة أن «**الحال عبارة عـن شيء يَرِد فـي القلب، وينـزل حينًا حينًـا من العالم العلـوي بقلب السالك. وعندما يتمّ ذلك يقع السالك في الجذبة الإلهيـة، فيؤخذ مـن المقام الأدنى إلى المقام العلـوي...**»[2] والحال لمحات غيبيّة تحدث في قلب السالك وهي مثل البرق، تعبر وليس لها دوام[3].

أمّا أبرز خصائص الأحوال:

- الحال حالة معنوية غير مستقرّة تأتي وتـزول، وعلى العارف السالك أن ينتظر فيضان الأحوال من عند الله ليقع في الجذبة الإلهية ويرى الحقائق الكمالية؛ لذلك قيل: العارف ابن الوقت، وفي هذا إشارة إلى أنّ العارف الحقيقي هو الذي ينتظر وقت نزول الحال عليه، فيستفيد منه في إطار السير والسلوك.
- الحـال موهبة يمنّ الله تعالى بها على العبد، وذلك خلافًا للمقام على أساس أنّ المقـام يتطلّـب عملاً من العبد، أمّا الحال فهـو لا يقتضي عملاً ولا مشقّة، بل الله تعالـى، ومن باب فيضـه ولطفه، يتفضل على العبد بـأن ينزل عليه بعض المعاني المعنوية.
- الأحوال ليست ثابتة ولا مستقرة؛ بمعنى أنّ العبد قد يحصل له حال معيّن، ولكن ليـس من الضـروري أن يحصل له نفسه في وقت آخر. لذلـك قيل إنّ صاحب الحال مترف عن حاله، فالحال عنده لا يحصل بناءً على طلبه، بل لا أثر لطلبه في ذلك، لأنّ الله هو الذي يعطيها.

(1) المصدر نفسه، ص 125.
(2) مقدّمات تأسيسية، ص 24.
(3) أسرار الشريعة، ص 731.

أعداد المقامات والأحوال والاختلاف فيها

اختلف العرفاء في عدد الأحوال والمقامات، فاعتبر صاحب كتاب اللمع أنّ المقامات سبعة والأحوال عشرة[1]، أمّا المقامات فهي: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكّل، الرضا، والأحوال: المراقبة، القرب، المحبّة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأُنس، الاطمئنان، المشاهدة، واليقين. واعتبر ذو النون المصري أنّ المقامات تسعة عشر، بينما ذكر الجنيد أنّها أربعة[2]. ولعلّ كتاب منازل السائرين للشيخ عبد الله الأنصاري أفضل أثر في تبيين المنازل وعددها، واللافت فيه أنّه جعل المقامات مئة مقسومة عشرة أقسام ذكرها بالتفصيل[3]. وقد أضاف العرفاء مقامات أخرى إلى ما ذكر، من أبرزها: مقام الخوف، مقام الشكر، مقام الرجاء، مقام الطلب، مقام العشق، مقام المعرفة، مقام الاستغناء، مقام التوحيد، مقام الحيرة.... وغيرها.

وكذلك زاد العرفاء أحوالاً أخرى غير ما ذكر، من جملتها: المحبّة، الغيرة، الحياء، القبض، البسط، الاتّصال، الشوق، الأنس، الهيبة، الغيرة، الخاتمة، الوصية، الجمع، التفرقة، الصحو، السكر، الذوق، المحو، الإثبات، الستر، التجلّي، والمكاشفة، وغيرها[4].

أمّا لماذا اختلف العرفاء في عدد المقامات والأحوال؟ في الجواب يمكن القول:

أولاً: إنّ أغلب العرفاء كانوا لا يفرّقون بين المقام والحال، وبالتالي كان عدد الأحوال والمقامات يختلف من عارف إلى آخر.

(1) مقدمات تأسيسية، ص 25 و 37.
(2) رزق، خليل، العرفان الشيعي، ص 320.
(3) المصدر نفسه، ص 323.
(4) راجع: مقدمات تأسيسية، ص 51 ـ 52.

ثانياً: إنّ إطلاق أسماء الأحوال والمقامات عند العرفاء، كان يخضع إلى ما كان يعاينه العرفاء بأنفسهم. وبعبارة أخرى: الأحوال والمقامات نتيجة تجربة عرفانية شخصية عاشها العرفاء؛ لذلك أطلقوا عناوين الأحوال والمقامات على كلّ ما عاينوه، وإذا كانت الحالات العرفانية تختلف من عارف إلى آخر، كان اطلاق العناوين مختلفًا أيضًا.

ثالثاً: إنّ بعض العرفاء اعتمد طريقة التعميم، بينما اعتمد آخرون التفصيل، فمن أشار إلى العناوين العامّة كانت المقامات والأحوال عنده أقلّ من الذي ذكرها التفصيلية. ولعل السبب في ذلك أن بعضهم كان يميّز بين بعض المقامات أو الأحوال، وبعضهم الآخر لا يميّز مثال ذلك أنّ بعضهم تحدّث عن: المحبّة، الشوق، الوجد، الود، الوله، والهيمان على أنّها أحوال متعدّدة، بينما اختصرها آخرون بعنوان واحد.

رابعاً: أنّ العرفاء، وكما يستخرجون أسماء الأحوال والمقامات من الحالات العرفانية الشخصية التي تحصل له، كذلك يستخرجونها من النصوص الدينية التي بين أيديهم؛ ولذلك اختلفت أعداد الأحوال والمقامات باختلاف النصوص الموجودة بين يدي العارف وعددها، واختلفت باعتبار طريقة قراءته للنصوص وتأويلها.

تجدر الإشارة إلى أنّ العرفاء قد استخرجوا عبارة المقام من الآيات الشريفة، بالأخصّ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1]، و﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2].

(1) سورة الصافات، الآية 164.
(2) سورة الإسراء، 79.

دور المقامات والأحوال في السير والسلوك

أشرنا في بحث السير والسلوك إلى أنّ الهمّ الأساس للعارف الوصول إلى الغاية النهائية والمقصد الأكمل؛ ولذلك لا بدّ له من طريقة خاصّة يتّبعها للوصول، نصّ عليها مشايخ العرفاء ومتقدّميهم، عدا عن الوصايا الدينية المنطلقة من الآيات والروايات. من هنا تبرز أهمّية الأحوال والمقامات في عملية السير والسلوك:

أولاً: يظهر من خلال المقامات والأحوال أنّ عملية السير والسلوك ليست عملية عبثية، وليست عملية غير منظمة، بل هي سير وسلوك محدّد ومؤطّر بمنازل وحالات معيّنة، فلا يمكن الوصول إلا من خلالها. وبهذا الأسلوب يصبح السير والسلوك أمرًا ميسّرًا لكل من أراد، إذ إنّ الطريق واضح.

ثانياً: تساهم المقامات والأحوال في التفريق بين السالك الحقيقي ومدعي السلوك.

ثالثاً: إنّ توضيح العرفاء للأحوال والمقامات ورسمهم إيّاها عن طريق النصوص الدينية، يجعل السلوك حالة معنوية مؤطّرة في إطار الدين والشرع، وبذلك يتمّ إبعاد كلّ الحالات الشاذّة عن ذلك، وبعبارة مختصرة يمكن القول: إنّ الأحوال والمقامات يسهلان عملية السير والسلوك، ويوضّحان الطريق، ويضمنان الوصول.

أسئلة الدرس

1. ما معنى المقام، ومتى يتحقق به السالك إلى لله؟
2. ما هو أثر معرفة المقامات والأحوال على عملية السير والسلوك؟
3. ما هو مقصود العارف بـ «**الحال**»، وما الفرق بينه وبين «**المقام**»؟

المفاهيم الرئيسة

1. يعتبر بحث الأحوال والمقامات من الأبحاث الهامّة في الفكر العرفاني؛ لما لذلك من أثر على عملية السير والسلوك.
2. المقام هو المكان الذي يقيم به العارف، وقد ذكروا للمقام تعاريف متعدّدة، من أبرزها: مُقام بضم الميم يعني الإقامة، ومَقام بفتح الميم يعني محلّ الإقامة.
3. المقام ثابت مستقر لا يطرأ عليه التغيير وعلى العبد أن يدرك المقامات ويجهد نفسه للوصول إليها لذلك قالوا إن المقامات مكاسب أي هي أمور يجب أن يكتسبها السالك.
4. وصول العبد السالك إلى المقامات وعبوره عنها لا يجري إلا مع تعب وجهد، لأنه لا يمكن أن يصل إلى مقام أو يرتقي إلى آخر إلا بعد عمل دؤوب ومقاساة تكلف.
5. المقامات مترتبة صعودًا بمعنى أن كل مقام هو أعلى من الآخر بمعنى أنه جامع لكمالات الأدنى.
6. الحال عبارة عن حالة معنوية تعتري العبد السالك أثناء سلوكه إلى الله تعالى. وهي غير مستقرة تأتي وتزول.

7. الحــال موهبة يمنّ الله تعالى بها علــى العبد، وذلك خلافًا للمقام على أساس أن المقام يتطلب عملاً من العبد.
8. اختلف العرفاء في عدد الأحوال والمقامات وهناك آراء متعددة بشأنها.
9. إن توضيــح العرفاء للأحوال والمقامات ورسمهــم إياها عن طريق النصوص الدينيــة، يجعل السلوك، حالة معنوية مؤطرة في إطــار الدين والشرع وبذلك يتم ابعاد كل الحالات الشاذة عن ذلك.
10. إن الأحــوال والمقامــات يسهلان عملية السير والسلــوك ويوضحان الطريق ويضمنان الوصول.

الحسن البصري

يبـدأ تاريـخ العرفان الاصطلاحي أيضـاً مثل علم الكلام مـن الحسن البصري المتوفي سنة 110هـ.

فقـد ولـد الحسن البصـري سنـة 22 للهجرة، وعاش حوالي 88 سنـة قضى 9 أعشارها في القرن الأوّل.

وبالطبع فإن البصري لم يعرف باسم «**الصوفي**»، وإنما عُدَّ واحداً منهم لأنه ألف كتابـاً سماه «**رعاية حقوق الله**» يمكـن تصنيفه كأول كتاب فـي التصوّف. والنسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة في أكسفورد. ويدّعي نيكلسون أن:

«**أوّل مسلـم كتـب حـول منهج حيـاة الصوفيـة كان الحسن البصـري، وقد بيّن طريقـة في التصـوّف والوصول إلى المقامات العالية، مـا زال العلماء يشرحونها حتـى اليـوم: أوّلها التوبة، تليها سلسلة من الأعمال الأخرى ينبغي أن يراعى فيها الترتيب للوصول إلى المقامات العليا**»[1].

الأمر الثاني أن العرفاء أنفسهم يرجعون بعض سلاسل الطريقة إلى حسن البصري ومنـه إلى حضـرة أمير المؤمنيـن عليه السلام: كسلسلة مشايخ أبو سعيـد أبو الخير[2]. ويُرجـع ابن النديم في كتابه «**الفهرست**» الفن الخامس من المقالة الخامسة سلسلة أبي محمد جعفر الخُلدي إلى الحسن البصري أيضاً ويقول أن الحسن كان قد أدرك

(1) ميـراث الإسـلام ص 85. وأيضاً مراجعة محاضرات الدكتور عبـد الرحمن البدوي في كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية لسنة 52 ـ 53 الدراسية. والنقطة الملفتة والبارزة هي وجود العديد من كلمات ونصوص نهج البلاغة فـي تلـك الرسالة. وتبرز هذه النقطة أيضـاً إذا علمنا أن بعض الصوفية يوصلون سلسلـة أسانيدهم عن طريق الحسن البصري إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام.

(2) تاريخ التصوف في الإسلام ص 462. نقلاً عن كتاب «**حالات وأحاديث أبي سعيد أبو الخير**».

70 رجلاً من أصحاب «بدر».

والأمــر الثالث أن بعض الحكايات التي نقلت تبيّن أن الحسن البصري كان عملياً أحد أفراد جماعة عرفوا فيما بعد بالصوفية. وكان الحسن البصري إيراني الأصل.

الدرس السابع

أوّل المنازل: اليقظة والتوبة

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن أن المنزلين الأولين للسير والسلوك هما؛ اليقظة والتوبة.
2. يتعرّف إلى حقيقة اليقظة والتوبة وموقعيتهما في السلوك المعنوي.
3. يتعرّف إلى أهم آثار وشروط كلا المقامين بشكل مختصر.

أشرنا إلى أنّ المقامات كثيرة عند العرفاء، إلا أنّهم يهتمّون ببعضٍ منها، سنحاول في هذا الدرس الإطلالة على مقامين هامّين: اليقظة والتوبة.

مقام اليقظة

يعيش الإنسان في حياته الدنيوية حالةً من الغفلة، فينسى أصله وحقيقته، ولا يدرك سبب هذه الحياة الدنيوية القصيرة ولا يفكّر فيها ولا يستعدّ للانتقال إلى العالم الآخر. وما دام الإنسان واقعًا في شراك الغفلة، ولم ينهض لنجاته وسعادته، فلن يبدأ الحركة نحو الله تعالى.

يعتبر العرفاء أن الخطوة الأولى في السير نحو الله تبدأ من اليقظة.

حقيقة اليقظة

اليقظة حالة من العودة إلى الذات، حيث تنهار بواسطتها الحجب الكبيرة التي منعت الإنسان من التوجّه نحو الله تعالى. واليقظة نور يلقيه الله تعالى على قلب السالك فتضيء حياته: «**اليقظة نور والغفلة غرور**»[1].

تحدّث الخواجه عبد الله الأنصاري في منازل السائرين، فاعتبرها: «**هي أوّل ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه**»[2]، وبناءً عليه عندما يتنبّه العبد إلى

(1) الخوانساري، جمال الدين محمد، شرح غرر الحكم، ج1، ص 37

(2) الأنصاري، الخواجة عبد الله، منازل السائرين، باب اليقظة، ص 24.

مـا هو فيه من غفلة، ويـدرك أنّ الحياة الحقيقية ليست فيمـا يعمل، ويقرّر الانتقال إلى عالم آخر، يبدأ من التوبة، وبالتالي التوجّه نحو الله تعالى، في هذه الحالة تكون اليقظـة، فهـي إذاً التنبّه لما هو موجود، ولما يجب أن يكـون عليه الشخص. ويترتّب علـى هذا النـور الحياة الطيبة في الحيـاة الدنيا والسلوك نحـو الله تعالى. جاء في القرآن الكريـم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1].

ونـور اليقظة، إفاضـة ربّانية وجذبة إلهيـة، تحرق أصول الجهـل وتزرع المعرفة والشوق نحو الكمال. جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله خلق قلوب المؤمنين مبهمـة علـى الإيمـان، فـإذا أراد استنارة مـا فيها فتحهـا بالحكمة وزرعهـا بالعلم، وزارعهـا والقيـم عليهـا ربّ العالميـن**»[2] ثـمّ إنّ الجذبـة الإلهية عامّـة تشتمل على الجميـع، وتوجّههـم نحو الحقّ تعالى، أمّـا الذين يتأثّرون وينجذبـون فهم المستعدّة قلوبهـم. العارف يحتاج إلى اليقظة في كافّة مراحل سلوكه على أساس أنّ لكلّ منزل شروطه وظروفه والانتقال إلى الآخر يتطلّب الالتفات والانتباه.

آثار اليقظة في وجود السالك

تبعث اليقظة على وجود تحوّلات أساسية عند العارف، من أبرزها:

1. الاهتمام بالنعم الإلهية:

يصبـح للنعم الإلهية معنًى جديدًا بعد حصول اليقظة، فعندما ينظر العارف إلى أيّ مـكان فيراه مليئًا بنعم الله تعالـى، تلك النعم اللامتناهية التي تشعره بأنّه غارق فيهـا وعاجـز عن شكره لأجلها. وهـذا يعني أن اليقظة تؤدّي إلـى إيجاد معرفة عند العارف، تجعله يدرك مدى تقصيره في ما أسلف في التعامل مع تلك النعم.

(1) سورة الأنعام، الآية 122.

(2) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب سهو القلب، ج 2، ص 422.

يقـول الخواجـه عبد الله الأنصـاري: «**واليقظة هي ثلاثـة أشيـاء: الأوّل لحظ القلب إلى النعمة على الاياس من عدّها... والوقوف على حدّها، والتفرّع لمعرفة المنّة بها...**»[1].

2. معرفة الحق:

تختلـف معرفة الحقّ عند الإنسان بمقـدار يقظته، والغفلة عن عظمة الحقّ تعالى يتـرك عليه آثـارًا مهلكة، من أبرزهـا: استصغار الذنب، نقصـان العبادة والطاعة، عدم رعاية أدب العبودية، وعدم الخوف من الله...

أمّـا السالك فيدرك عظمـة الخالق من خلال نور اليقظة، وعند ذلك يكبر الذنب في عينيه، وينظر إلى عبادته على أنّها ناقصة لا تتناسب مع مقام العظمة والجلال؛ فيسعى ويعمل ويبذل جهده ليصل إلى أعلى المراتب.

3. التعرّف إلى الأخطاء:

يتمكّـن السالك من خلال اليقظة من الالتفات إلـى أخطائه فتكبر في عينيه، ثمّ يتحرّك لجبران الخطأ والبحث عن طرق النجاة، يقول الأنصاري:

«**والثانـي مطالعة الجنايـة، والوقوف على الخطر فيهـا... والتشمّر لتداركها، والتخلّف من ربقها... وطلب النجاة بتمحيصها**»[2].

4. معرفة النفس الأمارة:

اليقظة تجعل السالك عارفًا بالنفس وأهوائها، وبواسطتها يدرك أنّ أعظم حجاب نُصـب بينه وبيـن الله هو النفس وأهواؤها. وبذلك يـدرك حقيقة الحديث الشريف: «**أعدى عدوّك، نفسك التي بين جنبيك**»[3].

(1) منازل السائرين، ص 24.
(2) المصدر نفسه، ص 26.
(3) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1983، ج 67، ص 64.

وإذا عـرف ذلـك تحـرّك نحو النجـاة، وفتّش عـن طريق محاربـة النفس، وكبح جماحها.

طبعـاً هناك آثـار أخرى تترتّب علـى اليقظة، من أبرزها: اغتنـام فرصة الحياة الدنيا، والتصديق بالوعيد الإلهي، و...

عـوامل قبول نور اليقظة

إذا كان فيضـ الله تعالـى موجّهًـا لجميـع الخلق، فـإنّ الذي يقبلـه ويتأثّر به هو المستعـدّ قلبه. هناك أسباب عديدة تجعل من القلب مستعدًّا لقبول نور اليقظة، من أبرزها:[1]

1. تـلاوة القرآن والتدبـر فيـه، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2].
2. الارتبـاط بالمعصومين الذين هم أصحـاب الولاية الحقّ، ومجاري فيض الله تعالى.
3. التفكيـر في الموت، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقطع منابت الغفلة، ويقوّي القلب بمواعد الله...**»[3].

مقام التوبة

1. حقيقة التوبة:

هـو المقام الذي يحصل للعارف بعد اليقظـة. والتوبة هي الرجوع الاختياري عن السيئـة والمعصية إلى الطاعـة والعبودية[4]. وفي تعريف آخر هـي الرجوع عمّا كان

(1) راجع: حسيني، قوام الدين، العرفان الإسلامي، ص 131.
(2) سورة ص 29.
(3) بحار الأنوار، ج 6، ص 133.
(4) رزق، خليل، العرفان الشيعي، ص 334.

مذمومـاً في الشـرع إلى ما هو محمود فيه[1]. والتوبة ضروريـة للعارف؛ إذ بدونها لا يمكن الشروع بالسير والسلوك، إذا ما دام الشخص مذنبًا أو مصرًّا على الذنب، كان عاجـزًا عن البدء بمسيره السير والسلـوك. وعندما نقول التوبة هي الرجوع إلى الله تعالى، يعني ذلك رفض كل ما هو مرفوض من قبل الله، والعمل بما هو مقبول عنده، وبعبارة أخرى: ترك المعاصي، والإقبال نحو الطاعات.

2. **أركان التوبة وشروطها:**

تتحـدّث الروايات الـواردة عن المعصومين عليهم السلام عن شـروط وأركان للتوبة، اقتبسها العرفاء وجعلوها من أساسيات التوبة، ومن أبرز هذه الشروط:

أ. الندم على ما مضى من الذنوب والمعاصي.

ب. والعزم على عدم العودة إليها لاحقًا.

ج. ترك الذلّة في الحال.

أمـا أركان التوبـة: أداء الفرائض، قضـاء ما فـات، طلب الحـلال، ردّ المظالم ومجاهدة النفس[2].

جـاء فـي حديث عن الإمام أمير المؤمنيـن عليه السلام لقائل قال بحضرته: «أستغفر الله»:

«ثكلتـك أمـك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفـار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العودة إليه أبدًا.

والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم، حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

(1) مقدمات تأسيسية، ص 25.

(2) مقدمات تأسيسية، ص 26.

والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها، فتؤدّي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت، فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[1].

آثار التوبة في وجود السالك

تحمل التوبة العديد من الآثار للسالك، من أبرزها:

1. التائب؛ حبيب الله تعالى:

إنّ التائب هو الذي بدأ الخطوة الأولى في مسير القرب إلى الله، فهو محبوب عنده. جاء في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[2]، وفي الحديث الشريف: «**التائب حبيب الله**»[3]. ومحبّة الله تعالى ليست كمحبّة العباد، فهي ليست من الحالات النفسانية، بل بمعنى جذب الحقّ العبدَ إليه، ورفع الحجب من أمام عينيه.

2. طهارة الباطن:

وعد الله تعالى التائبين بالعفو والمغفرة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[4]. وعفو الله ومغفرته تطهّر الباطن، وتمحو آثار الذنوب والمعاصي؛ لذلك جاء في الحديث: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[5].

(1) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم، ط 1، ج 4، ص 97.
(2) سورة البقرة، الآية 222.
(3) النراقي، محمد مهدي، جامع السعادات، تحقيق السيد محمد كلانتر، دار النعمان، النجف، ج 3، ص 65.
(4) سورة الشورى، الآية 25.
(5) جامع السعادات، ج 3، ص 65.

3. زيادة الرزق:

إذا تاب العبد توبة صادقة، وسّع الله تعالى من رزقه له، سواء أكان من الرزق الظاهري أو الباطني: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾[1].

4. تبدّل السيئات بالحسنات:

من دواعي لطف الله تعالى على العبد التائب أن يبدّل سيئاته بالحسنات ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[2].

في الختام نقول: إنّ التوبة واجبة على الجميع، ومن غير المقبول تأخيرها، وما دام الإنسان يرتكب المعاصي والذنوب فعليه أن لا يؤخّر التوبة على الإطلاق حتّى يلقى الله تعالى وليس في ذمّته شيء من الحرام.

(1) سورة هود، الآية 3.

(2) سورة الفرقان، الآية 70.

أسئلة الدرس

1. ما معنى اليقظة، ولماذا عدّها العارف المنزل الأول للسير والسلوك؟
2. ما هي أهم الآثار التي تحدثها اليقظة في نفس السالك، عددها، وتحدّث عن واحدة منها بالتفصيل؟
3. التوبة عند العارف لها أركان وشروط تحدث عنها.

المفاهيم الرئيسة

1. أشرنا إلى أنّ المقامات كثيرة عند العرفاء، إلا أنّهم يهتمّون ببعضٍ منها، خصوصا التي تقع في بدايات السلوك كمقام اليقظة والتوبة.
2. يعتبر العرفاء أن الخطوة الأولى في السير نحو الله تبدأ من اليقظة.
3. اليقظة حالة من العودة إلى الذات، حيث تنهار بواسطتها الحجب الكبيرة التي منعت الإنسان من التوجّه نحو الله تعالى.
4. تبعث اليقظة على وجود تحوّلات أساسية عند العارف، من أبرزها:
   أ. الاهتمام بالنعم الإلهية.
   ب. معرفة الحق.
   ج. التعرّف إلى الأخطاء.
   د. معرفة النفس الأمارة.
5. هناك أسباب عديدة تجعل من القلب مستعدًّا لقبول نور اليقظة، من أبرزها:
   أ. تلاوة القرآن والتدبر فيه.
   ب. الارتباط بالمعصومين.

ج. الذين هم أصحاب الولاية الحقّ، ومجاري فيض الله تعالى.

د. التفكير في الموت.

6. التوبة هو المقام الذي يحصل للعارف بعد اليقظة. والتوبة هي الرجوع الاختياري عن السيئة والمعصية إلى الطاعة والعبودية.

7. للتوبة شروط وأركان عند العارف أبرزها:

أ. الندم على ما مضى من الذنوب والمعاصي والعزم على عدم العودة إليها لاحقًا.

ب. أداء الفرائض، وقضاء ما فات.

ج. طلب الحلال، وردّ المظالم.

د. مجاهدة النفس.

محيي الدين عربي

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، من أبناء عبد الله بن حاتم، أخي عدي بن حاتم الطائي. كان يُكنّى بأبي بكر، ويلقّب بمحي الدين، ويُعرف بابن عربي.

ولد في بلدة مرسية في الأندلس، أواخر شهر رمضان عام 560هـ.، هاجر عام 568هـ. مع أسرته إلى إشبيلية عاصمة الأندلس، وأقام فيها حتى العام 598هـ. درس في هذه الأثناء القرآن على أبي بكر محمد بن خلف اللخمي، وتعلّم الأدب والحديث عن بعض المشايخ. حصل له في هذه الفترة تحوّل معنوي كبير. نال من خلاله مقام الكشف والشهود، فَذاعت شهرته، ووصلت أخباره إلى الفيلسوف ابن رشد الذي أصر على لقائه.

انهمك ابن عربي في المجاهدة والرياضة، وانبرى لاكتساب معارف العرفاء ومطالعة آثار الصوفية؛ فنال بعض الفتوحات وشاهد بعض المبشرات.

انتقل في العام 598هـ. إلى المشرق بهدف الحج، إلا أنّه لم يرجع إلى الأندلس، فأقام في الحجاز مدّة، وزار أماكن أخرى أمثال مصر وبغداد والموصل... وأخيراً وصل إلى دمشق التي أقام فيها حتّى آخر حياته. توفّي عام 638هـ. وله من العمر ثمانٍ وسبعون سنة.

يعتبر ابن عربي واحداً من أغزر المؤلفين، وقيل: إنّ كتاباته بلغت 240 مؤلفاً. وقال آخرون: إنها بلغت الأربعمئة...[1]. من أبرز مؤلفاته:

- الفتوحات المكّية.
- فصوص الحكم.
- مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.
- مفاتيح الغيب، وكتب أخرى.

(1) راجع: محي الدين بن عربي؛ الشخصية البارزة، في العرفان الإسلامي، د. محسن جهانكيري، دار الهادي، بيروت، ط1، 2003م.

الدرس الثامن

آخر المنازل:
الرضا والتسليم والتوحيد

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى المنازل الثلاث الأخيرة للسير والسلوك إلى الله.
2. يتعرّف إلى معنى وحقيقة مقامي الرضا والتسليم ودرجاتهما.
3. يبيّن معنى التوحيد عند العارف وأنواعه.

مقام الرضا

1. تعريف الرضا وحقيقته:

الرضا هو موافقة النفس لفعل من الأفعال، دون وجود تعارض بينهما، يقال: رضي بكذا، أي وافقه، ولم يمتنع منه. ويتحقّق بعدم كراهته إياه سواء أحبّه أم لم يحبّه ولم يكرهه، فرضى العبد عن الله هو أن لا يكره بعض ما يريده الله، ولا يحبّ بعض ما يبغضه، ولا يتحقّق إلا إذا رضي بقضائه تعالى، وما يظهر من أفعاله التكوينية وما أراده منه تشريعًا[1].

يعتبر الرضا المحور الذي تدور حوله أخلاق العرفاني، إذ منه ينبع التوكّل والزهد، وهو يورث السكينة في القلوب والاطمئنان إلى أحكام قضاء الله، وهو ثمرة المحبّة؛ لأنّ شأن المحبّ أن يرضى بكلّ ما يفعله المحبوب؛ لأنّه منّة من الله على العبد.

الرضا من المقامات التي يصل إليها السالك بعد أن تصفو نفسه عن طريق التوبة والطاعة والإخلاص، وترتقي من حال النفس الأمارة إلى مقام النفس اللوامة، ثمّ إلى مقام النفس الملهمة، حتّى تصل إلى مقام النفس المطمئنّة، فالمرضية[2].

يعتقد بعضهم أنّ الرضا مقام مختصّ بمن وصلوا، وليس من هم في طريق السلوك؛ لأنّ الذي رضي بما أراده الله له، وأصبحت نفسه مطمئنّة لذلك، فهو في

(1) رزق، خليل، العرفان الشيعي، ص 380 ـ 381.
(2) نقلا عن مقدمات تاسيسية، ص34.

أعلى مقام المعرفة والعرفان، ويترتّب على ذلك تغيير في نظرة العارف لكل شيء إذ يراه على أنّه من اللّه تعالى، وهو الذي أراد له أن يمون على هذا الحال[1].

2. درجات الرضا:

للرضا درجات ثلاث كما ذكرها العرفاء:

الدرجة الأولى: الرضا بربوبية اللّه تعالى، وهو رضا العامّة به يطهِّر الإنسان السالك من الشرك الأكبر، وشروطه ثلاثة:

أن يكـون رضا اللّه عـزّ وجلّ أحبّ الأشياء إلـى العبد، وأولى الأشيـاء بالتعظيم، وأحقّ الأشياء بالطاعة[2].

الدرجـة الثانيـة: الرضا بقضاء اللّه تعالى وقدره، فهو راضٍ عن كلّ ما يحصل له، سـواء أكان حسنًـا أو غير حسن، ويكون ذلك عنده سيّـان، حيث يعتبرها جميعها نِعم من اللّه تعالى. وشروطه ثلاثة: أن لا تختلف حالات العبد عند أي شيء، وترك مخاصمة الخلق، والإخلاص من المسألة والإلحاح[3].

الدرجـة الثالثـة: الرضا برضا اللّه تعالى، وهي خاصّة بأهل المحبّة؛ هؤلاء الذين لا ينظرون إلى رضاهم، بل همّهم الأساس رضا اللّه تعالى.

أمّـا الـذي يوصل السالـك إلى مقام الرضـا، الاعتقاد بلطـف اللّه تعالى وخيره، واعتبـار كافّة أفعاله جميلة، ومن ثمّ محبّته. ويترك الرضا آثارًا عديدة، من أبرزها: حسـن الظن، وشرح الصدر، والتخلية من الحرص والحسد، ومن ثمّ مناعة الطبع، وعلوّ الهمة[4].

(1) المصدر نفسه، ص 35.
(2) رزق، خليل، العرفان الشيعي، ص 384.
(3) المصدر نفسه، ص 384.
(4) حسيني، قوام الدين، العرفان الإسلامي، ص 320.

مقام التسليم

التسليم أعلى درجات سلوك الإنسان في مرحلة البدايات وقبل دخوله الأخلاقيات. وهو عبارة عن القبول المطلق بما يريده الحق سواء أوافق أغراض الشخص أو خالفها[1].

عند توضيح العرفاء لمقام التسليم، يذكرون الآية الشريفة: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[2]. فقالوا: إنّ درجة الإيمان لا تكتمل إلا بالتسليم. فيما حكم به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بينهم، ولا يخالفون ما أراد، ولا يجدون في أنفسهم حرجًا في قبول ذلك[3].

وللتسليم درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: التسليم أمام الأمور التي تعجز العقول عن إدراكها وأرادوا بذلك عدم البحث عن الأسباب؛ لأنّ العقول تدرك الأمور بأسباب معينة، وأما إذا كان هناك من الأمور ما هو فوق العقل، فلا يجب إنكاره، بل يجب التسليم به، بالأخصّ إذا كان صادرًا من مكان ثقة يعلو العقول بقدرته على كشف حقائق الوجود؛ لذلك قال التلمساني: «**فمن حقّق مقام التسليم حتّى صحّ له وكمُل عنده، فهو تسليم إلى الله تعالى مما هو غيب عنه ممّا يزاحم العقول والأوهام، فلا يلتفت إلى السبب في كلّ ما غاب عنه من أمور الدنيا والآخرة**»[4].

وهذا من جهة التسليم بما هو غائب، ولكن للتسليم وجه آخر، وهو التسليم مقابل الأمور غير الغائبة والتي تتعارض مع العقول. يعتقد العرفاء أنّ السالك تحصل له حالات أثناء حركته السلوكية تجعله يرى من المعاني الغيبية ما لا يمكن فهمه

(1) التلمساني، عفيف الدين، شرح منازل السائرين، انتشارات بيدار، قم، ط 1، 1413هـ.، ص 211.
(2) سورة النساء، الآية 65.
(3) شرح منازل السائرين، ص 211.
(4) المصدر نفسه، ص 212.

والإذعان له في عالم العقول، فهل ينكر العارف ما رآه، أم يسلّم؟ الواضح أن التسليم يقتضي القبول والرضوخ.

الدرجة الثانية: التسليم للحال التي تحصل للسالك[1]. والمقصود منها التسليم لوجود المعاني الباطنية عند السالك، والتي لا يدل العلم عليها، وهذا أعلى درجة من الأول والانتقال من الحجاب إلى الكشف ومن الخبر إلى العيان. وهذا يعني أنّ الحال التي تسيطر على العارف أثناء سيره وسلوكه يجعله يسلّم، ويقبل الحقائق التي لا يمكن قبولها من دونه؛ لأنّ ظاهرها مخالف للعلم.

والانتقال من الرسم إلى الحقيقة عبارة عن أن يسلّم السالك نفسه ليفنى في شهود الحقيقة.

الدرجة الثالثة: تسليم ما دون الحقّ إلى الحقّ. إنّ هذه الدرجة تكمّل الدرجة السابقة، وبناءً عليها فإنّ كلّ ما سوى الحقّ ليست سوى مظاهر وظِلال، وإذا أدرك السالك أنّ كل ما سوى الله تعالى ليس إلا هذه الرسوم الظاهرية، وأنّ الحقيقة هي لله تعالى وحده، فقد سلّم به.

والخلاصة: أنّ من وصل إلى مقام التسليم فقد وجد نفسه مسلمة إلى الحقّ.

مقام التوحيد

مقام التوحيد هو المقام الأخير عند العرفاء، وهو عبارة عن تنزيه الله تعالى من الحدث[2].

وللتوحيد أوجه ثلاثة:

1. **توحيد العامة:** وهو عبارة عن استخدام الأدلّة والبراهين والعقول لإثبات وحدانية الصانع.

(1) المصدر نفسه، ص 214.
(2) المصدر نفسه، ص 601.

2. **توحيد الخاصة**: وهو عبارة عن التوحيد الذي يحصل من خلال الحقائق للمتوسطين من أهل السلوك. والحقائق عندهم عشر، هي: المكاشفة، المشاهدة، المعاينة، الحياة، القبض، البسط، السكر، الصحو، الاتّصال، والانفصال[1].

3. **توحيد خاصّة الخاصّة**: وهو توحيد اختصّه الله تعالى لنفسه، لا يدركه إلا خواصّ الخواصّ الذين أراد الله لهم الاطّلاع على الأسرار، وأخرس ألسنتهم عن النطق بما يشاهدونه ويعيشونه في حالات سلوكهم. وهذا يعني أنّ السالك يصل إلى درجة من التوحيد تعجز عباراته عن الإفصاح بشيء، فلا دليل ولا شهود، بل فناء كامل، وأمّا إذا تمكّن العارف من وصفه، فهو لم يصل إليه[2].

(1) المصدر نفسه، ص 602 . 603.

(2) المصدر نفسه، ص 608.

أسئلة الدرس

1. ما هو مقام الرضا عند العارف، وكيف يصل إليه السالك؟
2. للتسليم ثلاث درجات تحدّث عنها.
3. ما هي حقيقة التوحيد عند العارف، وما هي أنواعه؟

المفاهيم الرئيسة

1. الرضا هو موافقة النفس لفعل من الأفعال، دون وجود تعارض بينهما، يقال: رضي بكذا، أي وافقه، ولم يمتنع منه.
2. لا يتحقّق العبد بمقام الرضا إلا إذا رضي بقضائه تعالى، وما يظهر من أفعاله التكوينية وما أراده منه تشريعًا.
3. يعتبر الرضا المحور الذي تدور حوله أخلاق العرفاني، إذ منه ينبع التوكّل والزهد، وهو يورث السكينة في القلوب والاطمئنان إلى أحكام قضاء الله، وهو ثمرة المحبّة.
4. الرضا من المقامات التي يصل إليها السالك بعد أن تصفو نفسه عن طريق التوبة والطاعة والإخلاص، وترتقي من حال النفس الأمّارة إلى مقام النفس اللوّامة، ثمّ إلى مقام النفس الملهمة، حتّى تصل إلى مقام النفس المطمئنّة، فالمرضية.
5. للرضا درجات ثلاث كما ذكرها العرفاء:
   أ. الرضا بربوبية الله تعالى.
   ب. الرضا بقضاء الله تعالى وقدره.
   ج. الرضا برضا الله تعالى، وهي خاصّة بأهل المحبّة.

6. التسليم أعلى درجات سلوك الإنسان في مرحلة البدايات وقبل دخوله الأخلاقيات. وهو عبارة عن القبول المطلق بما يريده الحق سواء أوافق أغراض الشخص أو خالفها.
7. للتسليم درجات ثلاث:
   أ. التسليم أمام الأمور التي تعجز العقول عن إدراكها.
   ب. التسليم للحال التي تحصل للسالك.
   ج. تسليم ما دون الحقّ إلى الحقّ.
8. مقام التوحيد هو المقام الأخير عند العرفاء، وهو عبارة عن تنزيه اللّه تعالى من الحدث.
9. للتوحيد أوجه ثلاثة:
   - توحيد العامة.
   - توحيد الخاصة.
   - توحيد خاصّة الخاصّة.

الجنيد البغدادي

وُلـد الجنيد في بغداد عـام 215هـ. وتوفّي عام 297هـ.، وعاصر اثني عشر خليفة من خلفاء بني العباس.

عاش الجنيد في زمان احتدام الصراع الفقهي الكلامي بين المعتزلة والأشاعرة والصراع الفقهي الصوفي، وقد أدّى ذلك في السنوات اللاحقة إلى مقتل الحلّاج.

توفّي والده وكان ما يزال صغيراً؛ فتولى الاهتمام به خاله السري السقطي (توفي عام 251)، وهو من أبرز المتصوّفة في ذاك الزمان.

وكان يتردّد بالإضافة إلى السري السقطي على الحارث المحاسبي، وهو من أبرز متصوّفة ذاك الزمان، وهذا يبيّن أنّه كان يعيش في وسط صوفي بالكامل.

اهتمّ الجنيد بعلوم الفقه، وبلغ مرتبة الافتاء، وقيل إنّه كان يفتي وهو ابن عشرين عاماً. وهذا يعني أنّ الجنيد لم يعتزل الدنيا ولم يبتعد عن الناس، بل كان يجالس الناس ويقدّم لهم من علومه، يضاف إلى ذلك أنّه كان يذهب كلّ يوم إلى دكّانه ليمارس مهنته في بيع الأقمشة.

يؤكّد الجنيد في عباراته أنّ الطريق التي تسلكها الصوفية هي اتّباع نبويّ، لا إبداع صوفي، يقول: الطرق كلها مسدودة عن الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتّبع سنّته، ولزم طريقه... ويقول أيضاً: من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدّبين، أفسد من اتّبعه. عاصر الجنيد مجموعة من كبار المتصوّفة الذين شكّلوا أعمدة التصوّف في القرن الثالث الهجري، ومن أبرزهم: أبو زيد البسطامي، أبو سعيد الخراز، سهل التستري، ذو النون المصري، وأبو حسين النوري...

ترك الجنيد العديد من الكتب والرسائل التي بقي أغلبها مخطوطاً أو مذكوراً ضمن كتب أخرى، ومن أبرزها: كتاب الميثاق، وكتاب دواء الأرواح، كتاب أدب المفتقر إلى الله، كلام في الإلوهية، كتاب في الفرق بين الإخلاص والصدق، وغيرها من الكتب والرسائل...

الدرس التاسع

الكشف والشهود

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى معنى الكشف، أقسامه وأنواعه.
2. يبيّن دور وأهمية الكشف في سير العارف وسلوكه.
3. يشرح الميزان الذي على أساسه نميّز الكشف الصحيح عن الكشف الباطل.

عندمـا يتقدّم العارف في مسيـر السير والسلوك، تشرق الأنـوار الإلهية في قلبه وقـواه الإدراكية، وتفتح له أبواب المشاهدات والكشوفـات، فيصل إلى مستوى أعلى من الإدراك، ويرى حقائق لم تكن قد انكشفت له من قبل.

ترافق الكشوفات السالك طـوال حركته السلوكية، وتتفاوت باختلاف قربه وبعده من المقصد، وباختلاف استعداده الروحي.

تعريف الكشف

يتحـدّث القيصـري في شرحه على فصوص الحكم حـول معنى الكشف، فيقول: «**اعلـم أنّ الكشـف لغةً رفع الحجاب. يقال: كشفت المرأة وجهها؛ أي رفعت نقابها. واصطلاحـاً هـو الاطّـلاع علـى مـا وراء الحجـاب مـن المعانـي الغيبيـة والأمـور الحقيقية**»[1].

ويفهم من خلال هذا التعريف:

1. أنّ الكشف نوع من الإدراك والعلم.
2. أنّ الكشف هو من الإدراكات والعلوم الشهودية والحضورية.
3. أنّ الكشف عن الحقائق يحصل من خلال إزاحة الحجب من أمام السالك.

(1) شرح القيصري، ص 107.

أقسام المكاشفات

قسّم القيصري المكاشفات نوعين: صوري ومعنوي. ثمّ شرح أشكال كلّ واحد من النوعين:

1. **الكشف الصوري:**

«**وهو ما يحصل في عالم المثال عن طريق الحواس الخمس...**»[1]. ولتوضيح المقصود، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ العرفاء يقسّمون العوالم إلى ثلاثة، هي: عالم المادة، عالم المثال، وعالم التجرّد. وأنّ للإنسان أيضاً مراتب ثلاث: الحسّ والمثال، والتجرّد، حيث يمكنه بواسطتها إدراك موجودات العالم والتعاطي معها. وعالم المثال هو عالم يتوسّط عالم المادّة وعالم التجرّد التام، والأحلام والمنامات التي يراها الإنسان أثناء نومه هي درجة متدنّية منه.

العرفاء يعتقدون أنّ للإنسان، وبالإضافة إلى حواسه الخمس الظاهرية: الباصرة، الذائقة، الشامة، اللامسة، وحاسة السماع، حواساً خمساً باطنيةً أخرى بموازاتها، هي باطن هذه الحواس الظاهرية، بل وتكون الباطنية أساس الظاهرية ومنشأها. فإذا أدرك الإنسان بالحواس الظاهرية، كانت معرفته محصورة بعالم المادّة، وإذا ادرك بالحواس الباطنية، أمكنه الاطّلاع على ما هو فوق عالم المادّة. والإنسان السالك، ونتيجة جهوده في طريق الوصول إلى القرب الإلهي، يدرك بحواسه الباطنية، الحقائق الموجودة في عالم المثال.

وهذا الكشف الصوري أو المثالي قد يحصل في اليقظة، وقد يحصل في النوم. وفي كلّ الأحوال، فهو متعلّق بالحواس الخمسة؛ أي الباصرة، الذائقة، الشامة، اللامسة، وحاسة السماع، ولكن على المستوى الباطني لا الظاهري. وفيما يأتي نذكر نموذجاً واحداً لذلك. عن الإمام الصادق عليه السلام: «... **مازلت أكرر آيات القرآن**

(1) شرح فصوص الحكم، ص 107.

حتى بلغت إلى حال كأنّني سمعت مشافهة ممّن أنزلها على المكاشفة والعيان، فلم تعمّ القوة البشرية بمكاشفة الجلالة الإلهية...»[1].

2. **الكشف المعنوي:**

الكشـف المعنوي عبارة عن: «**ظهور المعاني الغيبية والحقائق العينية**»[2]، وهو كشـف بعيد عـن عالم المادّة والحواسـ؛ إذ تُكْشف الحجب بأكملهـا، فيرى السالك حقائـق من ذاك العالم المجرّد. وللكشـف المعنوي مراتب نذكرها على نحو التعداد فقط، وهي:

أ. الكشف الحدسي.

ب. الكشف القدسي.

ج. الكشف الإلهامي.

د. الكشف الوحي.

هـ. الكشف السرّي.

أ. الكشف الخفي والأخفى.

دور المكاشفات في السلوك

الكشـف مـن العنايات الإلهيـة الخاصّة للسالكيـن، والمكاشفـات تحمل للسالك بشائر وتحذيرات فيطّلع من خلالها على مقامه، ويدرك نقائصه، فيبادر إلى إزاحتها للوصول إلى الأعلى. ويحمل الكشف فوائد عديدة، من أبرزها:

1. يتمكّن السالك بواسطتها من الاطّلاع على نقائصه، ويعرف مقامه ومنزلته.
2. يجعل الكشف السالك يستأنس بما هو فيه؛ فيجتهد ويجدّ في السلوك.

(1) ابـن طاووس، فـلاح السائل، مكتبة أهل البيت، صـ 107 ـ 108، نقلاً عن «**الأربعون حديثاً**» للإمام الخميني قدس سره ص 436.

(2) شرح فصوص الحكم، ص 110.

3. الكشف يساعد السالك في الوصول إلى بعض المقامات التي لا يمكن له الوصول إليها إلا به[1].

طرق نفوذ الخطأ إلى المكاشفات

المعرفة الشهودية، كما المعارف الأخرى، لا تخلو من الاشتباهات والاشكالات أحياناً. فالوصول إلى المعرفة الشهودية الصحيحة يتطلّب مقدمات، يؤدّي فقدانها إلى وقوع الخلل والاشتباه في المكاشفات. والمقدّمات عبارة عن تهذيب الباطن، وتوجّه النفس، واشتغالها بالأمور التي توصل إلى المعرفة الصحيحة، وابتعادها عن الدنيا وتعلّقاتها، والالتزام الدقيق بأحكام الشريعة، كذلك صحّة السير والسلوك...

وقد ذكر العرفاء مجموعة من العوامل التي تؤدّي إلى انحراف المكاشفات، من أبرزها:

1. ضعف الجسم بسبب الأمور الطبيعية، كالمرض...
2. السير والسلوك بناءً على اعتقادات باطلة وغير صحيحة.
3. الابتعاد عن الشريعة.
4. عدم تطهير الباطن بشكل كامل من الرذائل والصفات الباطلة[2].

معايير صحّة المكاشفات

إذا كان الخطأ والخلل يدخل إلى مكاشفات السالك، فهو بحاجة إلى معايير وقوانين يتمكّن بواستطها من تميز الخطأ والصواب فيها. في هذا الإطار تحدّث العرفاء عن معيارين أساسيين، أحدهما عام والآخر خاص.

(1) المصدر نفسه، ص 242.
(2) المصدر نفسه، ص 244.

1. **المعيار العام:**

يندرج تحت عنوان المعيار العام أمور، منها: القرآن الكريم والروايات الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام. فما دامت المكاشفات لا تخالف النصّ القرآني الصريح، ولم تأتِ الأخبار والروايات بما يناقضها ويطعن فيها، فهي صحيحة[1].

ومن جملة الأمور الأخرى التي ذكرها العرفاء في هذا العنوان: البرهان الصحيح، حيث أوصى بعض العرفاء بإتقانه، لأنّ المكاشفات العرفانية يجب أن لا تخالف العقل، ويجب أن يتمكّن السالك من الإتيان ببرهان ودليل عليها، حتّى أنّ بعضاً منهم اعتبر المعارف اليقينية النظرية بمثابة علم المنطق بالنسبة للحكمة والفلسفة[2].

2. **المعيار الخاص:**

يعتقد العرفاء أنّ السالك، وبسب الحالات الروحية التي يعيشها، يتمكّن بنفسه من معرفة مدى صحّة وصدق مكاشفاته. يقول القيصري في هذا الخصوص: «... **ومنها ما هو خاص، وهو ما يتعلّق بحال كل منهم الفايض عليه من الاسم الحاكم والصفة الغالبة عليه...**»[3].

(1) شرح فصوص الحكم، ص 101.

(2) راجع: تركه، صائن الدين علي، تمهيد القواعد، مقدمة وتصحيح جلال الدين الآشتياني، انجمن حكمت وفلسفه إيران، 1355هـ.ش، ص 273.

(3) شرح فصوص الحكم، ص 101.

أسئلة الدرس

1. ما هو معنى الكشف عند العارف، وما هي أنواعه؟
2. ما هو المعيار في صحة الكشف وصدقه عند العارف؟
3. ما هو دور وأثر الكشف في السلوك المعنوي عند العارف؟

المفاهيم الرئيسة

1. الكشف لغةً رفع الحجاب. يقال: كشفت المرأة وجهها؛ أي رفعت نقابها. واصطلاحاً هو الاطّلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية.
2. الكشف نوع من الإدراك والعلم، وهو من الإدراكات والعلوم الشهودية والحضورية.
3. الكشف عن الحقائق يحصل من خلال إزاحة الحجب من أمام السالك.
4. قسّم العرفاء المكاشفات نوعين: صوري ومعنوي.
5. الكشف الصوري وهو ما يحصل في عالم المثال عن طريق الحواس الخمس.
6. الكشف المعنوي عبارة عن: ظهور المعاني الغيبية والحقائق العينية، وهو كشف بعيد عن عالم المادّة والحواس؛ إذ تُكْشف الحجب بأكملها، فيرى السالك حقائق من ذاك العالم المجرّد.
7. للكشف المعنوي مراتب وهي:
   و. الكشف الحدسي.
   ز. الكشف القدسي.

ح. الكشف الإلهامي.

ط. الكشف الوحي.

ي. الكشف السرّي.

ب. الكشف الخفي والأخفى.

8. الكشـف من العنايات الإلهية الخاصّة للسالكيـن، والمكاشفات تحمل للسالك بشائر وتحذيرات فيطّلع من خلالها على مقامه، ويدرك نقائصه.

9. تحـدّث العرفاء عن معيارين أساسييـن لتمييز الكشف الصادق عن الكاذب: أهمهمـا أن لا تخالف المكاشفات النص القرآني الصريـح، ولم تأتِ الأخبار والروايات بما يناقضها ويطعن فيها.

السيد حيدر الآملي

هـو حيدر بن علي بن حيدر، عـرف بألقاب عديدة، ومنها: ركـن الدين، العلوي، الحسينـي والمازندراني... وأمّـا أشهر ألقابه فهو الآملي، نسبة إلى آمل، وهي البلدة التي ولد فيها وترعرع. وُلِد عام 719هـ.

درس مبادئـي العلوم وأصـول العقائد في بلدته، ثـمّ في مدن الجـوار. كخراسان واسترآباد، وبعد ذلك قصد أصفهان التي كانت إحدى أهمّ المراكز الفكرية والسياسية.

لا نعلـم شيئـاً عن أساتذته أو الكتـب التي درسها، إلّا أنّه يشير فـي بعض المقاطع التي كتبها إلى أنّه واظب على العبادات والرياضيات، وحصلت له بعض المكاشفات في أصفهان.

تـرك أصفهـان بعد مدّة مـن مكوثه فيها راجعـاً إلى آمل، حيـث اشتغل بصحبة الملـوك وتعاطى أمور السياسـة، وتولّى مناصب حكومية، فأصبح في مدّة وجيزة من أصحـاب الحظوة، وبعـد الثلاثين من العمر تـرك آمل قاصداً أماكـن أخرى للتعلم والرياضة، وقد انقطعت أخباره بعد العام 782هـ.

كانت هذه المرحلة، عبارة عن مرحلة النصوح الروحي، والاشتغال بالعلوم الإرثية، والمواظبـة علـى إنجـاز الإنتاج الفكـري. وفي هـذه المرحلة قرأ العديـد من الكتب العرفانية الهامّة، كفصوص الحكم ومنازل السائرين، وتتلمذ على أيدي أساتذة، من أبرزهم: عبد الرحمان بن أحمد المقدسي، والشيخ فخر الدين الحلّي... وأقام عقد الأخوّة والفتوّة مع الشيخ المحقّق نور الدين الطهراني.

لـم يحـدّد المؤرخون عام وفاتـه، إلا أنّ أخباره انقطعت بعد العـام 782هـ. تميّز السيـد حيـدر الآملي، بالأخص فـي الفترة الثانية مـن حياته، بانغماسـه في الرؤى والمكاشفات، وقد ذكر ما حصل له في اليقظة والنوم، وأورد ذلك في كتبه.

الدرس العاشر

عرفان الإمام الخميني قدس سره

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر أهم أركان عرفان الإمام الخميني قدس سره.
2. يبيّن موقعية القرآن والحديث في عرفان الإمام قدس سره.
3. يبيّن موقعية السياسة وأداء التكليف الشرعي في عرفان الإمام قدس سره.

يُعتبر الإمام الخميني قدس سره واحدًا من الذين عاشوا تجربة عرفانية خاصة، يمكن الإشارة إليها باعتبار أنّها تجربة فريدة، قليلاً ما نجد مثيلاً لها في عالم العرفان. فالإمام الخميني قدس سره العارف من حيث السلوك والمعرفة، رجل سياسة وجهاد، أسّس وقاد الدولة الشيعية القوية في العالم المعاصر، وهو بالإضافة إلى ذلك حكيم وفقيه وأصولي من الطراز الأول. وإذا كان الموضوع على هذه الشاكلة، فما هي مميزات وخصائص عرفان الإمام الخميني قدس سره؟ سنحاول هنا الإطلالة على بعض عناوين العرفان العملي عند الإمام قدس سره.

التوجّه إلى الله تعالى

لا بدّ أن يعيش العارف حالة الشعور بالفقر والحاجة إلى الغني المطلق، وعندما يشعر العارف بأنّه لا يملك شيئاً، وأنّه محتاج إلى كلّ شيء وأنّ الوجود الذي يعيش فيه ليس منه، ويدرك أنّ كلّ ذلك يعود إلى الغني المطلق الأوّل وهو ربّ العباد، عند ذلك يبلغ أعلى درجات المعرفة بالله تعالى. يقول الإمام الخميني قدس سره مخاطباً ابنه: **«اعلم أنّ العالم سواء أكان أزلياً وأبدياً أو لا، وسواء أكانت سلاسل الموجودات غير متناهية أو لا، فإنّها جمعياً محتاجة؛ لأنّ وجودها ليس ذاتياً لها، ولو تفكّرت، وأحطت عقلياً بجميع السلاسل غير المتناهية، فإنّك ستدرك الفقر الذاتي والاحتياج في كمالها...»**[1].

(1) زرق، خليل، العرفان الشيعي، ص 396 ـ 397، نقلاً عن المظاهر العرفانية للإمام الخميني قدس سره.

ويبيّن الإمام قدس سره أنّ الشعور بهذا الفقر أمر فطري، لا يحتاج إلى دليل إقناعي، ويضيف بأنّ هذه الفطرة بعينها تعترف بحاجتها إلى من ليس محتاجاً في وجوده.

إنّ التوجّه إلى الله تعالى يتطلّب الشعور بالفقر الذاتي، ولكن هذا لا يكفي، إذ إنّه يقتضي أن يشعر العارف بأنّه غير محتاج لأحد سوى الله تعالى، فالتوجّه إلى الله تعالى، يستلزم نفي كلّ ما سواه؛ لأنّ ما سوى الله عاجز عن تحويل الفقر إلى غنى؛ لذلك يقول: «**ارْتَبِطْ بالغني المطلق، حتّى تستغني عمن سواه، واطلبْ التوفيق منه حتى يجذبك من نفسك ومن جميع من سواه**»[1].

القرآن الكريم، المرجع الأساس للعرفان

يعتبر الإمام الخميني قدس سره أنّ القرآن الكريم هو كتاب معرفة الله ومعرفة طريق السير والسلوك[2]. يذهب الإمام قدس سره إلى أبعد من ذلك، حيث يعتبر أنّ العرفان ومسائله من معجزات القرآن الكريم. وإنّ من أعظم وأسمى معاجزه هي هذه المسائل العرفانية العظيمة التي لم تكن معروفة لدى فلاسفة اليونان»[3].

وبما أنّ تلك المسائل العرفانية لم تكن معروفة من قبل، فقد أخذها السابقون من القرآن، فهو كتاب انفرد بذكر تلك المسائل العرفانية، فانعكس على شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**وإنّها لمعجزة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)، إذ كان على درجة عالية من المعرفة بالله، بحيث إنّ الباري جلّ وعلا كان يوضح له أسرار الوجود...**»[4].

لذلك لا بدّ من التعرف على القرآن الكريم لاستلهام تلك المعارف والحقائق الغائبة عنّا، يوصي الإمام ابنه قائلاً: «**بني، تعرّف إلى القرآن. كتاب المعرفة**

(1) مصدر سابق.
(2) المصدر نفسه، ص 398.
(3) المصدر نفسه، نقلاً عن المظاهر العرفانية، ص 14.
(4) المصدر نفسه.

العظيم. ولو بمجرّد قراءته، واجعل منه طريقاً إلى المحبوب، ولا تتوهّمنّ أنّ القراءة من غير معرفة لا أثر لها، فهذه وساوس الشيطان، فهذا الكتاب كتاب من المحبوب إليك وإلى الجميع... واعلم أنّنا لو أنفقنا أعمارنا بتمامها في سجدة شكر واحدة على أنّ القرآن كتابنا لما وفينا هذه النعمة حقّها من الشكر»[1].

الأدعية والمناجاة

يعتبر الإمام الخميني قدس سره أنّ الأدعية، بالأخصّ المأثورة منها، إحدى الوسائل التي يمكن السير والسلوك بواسطتها، على أساس أنّ الأدعية الواردة عن المعصومين عليهم السلام، أعظم دليل إلى معرفة الله تعالى وأسمى وسيلة لسلوك طريق العبودية، وأرفع رابطة بين الحقّ والخلق[2].

والأدعية من وجهة نظر الإمام قدس سره تحمل في طياتها مختلف المعارف الإلهية، وهي وسيلة يمكن أن يركن إليها السالك للأنس بالله تعالى. يقول الإمام: «**وتمثّل وسيلة يشكرها أهل بيت الوحي، للأنس بالله جلّت عظمته، فضلاً عن أنّها تمثّل نموذجاً لحال أصحاب القلوب وأرباب السلوك**»[3].

الابتعاد عن حب الدنيا والرياسة

الواضح أنّ حب الدنيا والتعلّق بها من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره مانع من السلوك، فالدنيا تقع على رأس الموبقات، يقول الإمام قدس سره: «**إنّ السبب الرئيس للندم وأساس ومنشأ جميع ألوان الشقاء والعذاب والمهالك ورأس جميع الخطايا والذنوب إنّما هو حبّ الدنيا الناشىء من حبّ النفس**»[4].

(1) مصدر سابق.
(2) المصدر نفسه، ص 399.
(3) المصدر نفسه، ص 400، نقلاً عن المظاهر العرفانية، ص 17.
(4) المصدر نفسه، ص 401، نقلاً عن المظاهر العرفانية، ص 20.

ويؤكّد الإمام قدس سره في وصيّته لابنه على ضرورة عدم إتعاب النفس في طلب الدنيا والمناصب والمقامات الدنيوية؛ لأنّ ذلك لن يحمل معه سوى الشقاء والعذاب: «**ولا تتعب نفسك بالانتقال بطرق باب، هذا الباب أو ذاك الباب، للوصول إلى منصب أو الشهرة التي تشتهيها النفس، فأنت مهما بلغت من مقام، فإنّك سوف تتألمّ وتشتدّ حسرتك وعذاب روحك لعدم بلوغك ما فوق ذلك**»[1].

وليست دعوة الإمام الخميني قدس سره إلى ترك الدنيا، القعود عن العمل والسعي في هذه الدنيا، بل للإمام قدس سره فهم خاص للدنيا لا بدّ من العمل وبذل الجهود عن أساسه؛ لذلك يقول في فهمه للدنيا: «**إنّ عالم الملك ليس مذموماً في حدّ ذاته، فهو مظهر الحقّ ومقام ربوبيته تعالى، ومهبط ملائكته، ومسجد أحبّاء الله، ومكان تربية الأنبياء والأولياء عليهم السلام ومعبد وموطن تجلّي الحقّ على قلوب عشّاق المحبوب الحقيقي**»[2].

إذاً، للدنيا فهم خاص عند الإمام قدس سره، وبناءً على هذا الفهم ينبغي للسالك أن ينظر إليها على أنّها مكان لخدمة خلق الله ومساعدة المجتمع: «**ولا يعني ما ذكرت أن تترك خدمة المجتمع وتعتزل وتكون كَلّا على خلق الله.... بني، لا تُلقِ عن كاهلك حمل المسؤولية الإنسانية التي هي خدمة الحقّ في صورة خدمة الخلق**»[3].

ومن هنا نفهم أن على عاتق الإنسان مسؤوليّات في عالم الدنيا، وأنّ الدنيا ليست مذمومة بحدّ ذاتها، بل المذموم فيها هو الانشداد إليها والتعلق بها يقول الإمام قدس سره: «**إنّ ما ورد في القرآن والأحاديث من ذمّ هذه الدنيا، لا يكون عائداً في الحقيقة للدنيا من حيث نوعها أو كثرتها، بل يعود إلى التوجّه نحوها وانشداد القلب بها وبحبّها**»[4].

(1) الإمام الخميني، وصايا عرفانية، مركز باء للدراسات، ط 2، 2001م.
(2) وصايا عرفانية، ص 25.
(3) وصايا عرفانية، ص 58 ـ 59.
(4) الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، تعريب محمد الغروي، دار الكتاب، قم، ط 2، 2002، ص 120.

هـذه هي الدنيـا التي هرب منها العرفـاء ورفضها بعض أصحـاب العقول. فالله تعالى خلق آدم من تراب، والتراب مكان أساسي لنشاط الفرد في الدنيا، فكيف يُذَمّ ما خلق الله للإنسان لتكون فيه حياته.

لقـد تمكّن الإمـام الخميني قدس سره مـن رسم خـطّ فاصل بين الدنيـا المذمومة والدنيـا التي يجب أن يعيش فيها الإنسان السالـك والإنسان العابد، الذي ينطلق في تعامله مع الدنيا من باب المسؤولية التي ألقاها الله تعالى عليه[1].

التصدّي للشأن السياسي والاجتماعي

مـن جملة الأمـور التـي تتوقّف على موقـف الإمـام الخميني قدس سره مـن الدنيا، التصدّي للمسؤوليّات الاجتماعية والسياسية.

تميّـز عرفان الإمام الخميني قدس سره بأنه تمكّن مـن المزج بين السلوك العرفاني والحيـاة الاجتماعية والسياسية، على أسـاس أنّ تحمّل السالك والمسلم لمسؤولياته الاجتماعيـة، والسياسية هو وسيلة للقرب الإلهـي، يقول الإمام قدس سره: «**وما أكثر ما يرتقـي المتصـدّي لشـؤون الحكومـة، فيحظـى بلبِّ قـرب الحقّ لمـا يحصّله من دافـع إلهـي كداود وسليمان** عليهما السلام، **بل وأفضل منهمـا منزلة، كالنبي الأكرم** صلى الله عليه وآله وسلم **وخليفتـه بالحقّ علـي بن أبي طالب** عليه السلام، **وكالمهدي (أرواحنا لمقدمه الفداء) في عصر حكومته العالمية**»[2].

وعلى هذا الأساس، فالاعتزال عن المحيط مرفوض، بل يجب على الإنسان القيام بمسؤولياته التي فرضها الله تعالى عليه في التعامل معه.

فـي الحقيقـة، إنّ الكلام عن عرفـان الإمام الخميني قدس سره طويـل وطويل، وهو الـذي ترك لنا إرثاً فكرياً عرفانياً كبيراً، وهو الذي تجسّدت مظاهر السير والسلوك

(1) راجع: علي، محمد أحمد، مقامات العرفان، الانتشار العربي، بيروت، / 1، 2007، ص 92 ـ 99.
(2) رزق، خليل، العرفان الشيعي، ص 404، نقلاً من المظاهر العرفانية، ص 64.

في حياته الشخصية الاجتماعية والسياسية... فكان نموذجاً للعارف الحقيقي الذي جعل من المعصومين عليهم السلام قدوته وأسوته.

الإخلاص

يعتقد الإمام الخميني قدس سره أنّ الوصول إلى الفوائد المعنوية وحصول الآثار النورانية للعمل يتوقّف على جملة من الآداب المعنوية، ومن أبرزها الإخلاص، يقول الإمام قدس سره: «**وحقيقته تصفية العمل عن شائبة سوى الله، وتصفية السرّ عن رؤية غير الحقّ تعالى في جميع الأعمال الصورية واللبية والظاهرية والباطنية. وكمال الإخلاص ترك الغير مطلقا...**»[1] ثمّ إنّ الإمام فصّل الحديث في أقسام الإخلاص ومراتبه والنتائج المترتّبة عليه.

أداء التكليف الشرعي

اتّسم عرفان الإمام الخميني قدس سره بخاصيّة أداء التكليف الشرعي، وكان في حياته مثالاً يُحتَذَى به في هذا الإطار. شدّد الإمام قدس سره في الكثير من كلماته على أنّ الإنسان مأمور بأداء التكليف، بصرف النظر عن النتائج التي تترتّب على ذلك، يقول الإمام قدس سره: «**كلّنا مأمورون بأداء التكليف والواجب، ولسنا مأمورين بتحقيق النتائج**»[2]. وأداء التكليف من وجهة نظره عبارة عن الالتزام بما أمر الله تعالى، والذي وصل إلينا عبر الشريعة الإلهية. وقد أشار الإمام قدس سره إلى أنّ هذا التكليف قد حدّده الإسلام، حيث لا حاجة لتقليد واتّباع غير المسلمين إذا كانت قوانين الإسلام تضمّنت كلّ شيء: «**حدّد الإسلام التكليف في كلّ شيء، ووضع القوانين لكلّ شيء، ولا حاجة بالمسلمين لتقليد أحد، أو اتّباعه في قوانينه**»[3].

(1) الإمام الخميني، الآداب المعنوية للصلاة، ص 294.
(2) الإمام الخميني، روح الله، صحيفة الإمام، ج21، ص259.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص34.

أسئلة الدرس

1. كيف يتحقق التوجه التام إلى الله عند الإمام الخميني قدس سره؟
2. ما معنى الإخلاص وما هي موقعيته في عرفان الإمام قدس سره؟
3. ما هي موقعية التكليف الشرعي في عرفان الإمام الخميني قدس سره؟

المفاهيم الرئيسة

1. يُعتبر الإمام الخميني قدس سره واحدًا من الذين عاشوا تجربة عرفانية خاصة، يمكن الإشارة إليها باعتبار أنّها تجربة فريدة، قليلاً ما نجد مثيلاً لها في عالم العرفان.
2. الإمام الخميني قدس سره العارف من حيث السلوك والمعرفة، رجل سياسة وجهاد، أسّس وقاد الدولة الشيعية القوية في العالم المعاصر، وهو بالإضافة إلى ذلك حكيم وفقيه وأصولي من الطراز الأول.
3. يبيّن الإمام قدس سره أنّ الشعور بالفقر الذاتي التوجه إلى الله تعالى أمر فطري، لا يحتاج إلى دليل إقناعي، ويضيف بأنّ هذه الفطرة بعينها تعترف بحاجتها إلى من ليس محتاجاً في وجوده.
4. يعتبر الإمام الخميني قدس سره أنّ القرآن الكريم هو كتاب معرفة الله ومعرفة طريق السير والسلوك. ويذهب أبعد من ذلك، حيث يعتبر أنّ العرفان ومسائله من معجزات القرآن الكريم.
5. يعتبر الإمام الخميني قدس سره أنّ الأدعية، بالأخصّ المأثورة منها، إحدى الوسائل التي يمكن السير والسلوك بواسطتها، وأسمى وسيلة لسلوك طريق العبودية، وأرفع رابطة بين الحقّ والخلق.

6. الواضــح أنّ حب الدنيا والتعلّق بها من وجهة نظر الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ مانع مــن السلوك، فالدنيا تقع على رأس الموبقات، وهذا ما يؤكّد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ في وصيّته لابنه السيد أحمد.
7. ليست دعوة الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ إلى ترك الدنيا، القعود عن العمل والسعي فــي هــذه الدنيــا، بل للإمــام قُدِّسَ سِرُّهُ فهم خاص للدنيــا لا بدّ مــن العمل وبذل الجهود عن أساسه.
8. تميّز عرفان الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ بأنه تمكّن من المزج بين السلوك العرفاني والحيــاة الاجتماعية والسياسية، على أساســ أنّ تحمّل السالك والمسلم لهذه المسؤوليات هو وسيلة للقرب الإلهي.
9. اتّســم عرفان الإمــام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ بخاصيّة أداء التكليــف الشرعي، وشدّد قُدِّسَ سِرُّهُ فــي الكثير من كلماته علــى أنّ الإنسان مأمور بــأداء التكليف، بصرف النظر عن النتائج التي تترتّب على ذلك.

ابن تركه الأصفهاني

هـو صائـن الدين علي ابن تركـه الأصفهاني، حكيم، عارف وشاعـر وأديب. وُلِد فـي أصفهـان عام 770هـ. جدّه أبو حامـد صدر الدين تركـه الأصفهاني، من أشهر عرفاء ذاك الزمان. درس العلوم الدينية عند أخيه الأكبر، ودرس العلوم العقلية عند أساتذة ذاك الزمان، وتبحّر في الجفر والأعداد.

عندما احتل تيمور أصفهان، غادر مع أخيه إلى سمرقند، ومن هناك قصد الحجّ، وعاد إلى مصر والشام، حيث تعرّف خلال أسفاره إلى مشايخ العرفاء والصوفية.

عاد إلى أصفهان عام 807 هـ. بعد وفاة تيمور، وسافر من هناك إلى شيراز، حيث اشتغل بالتبليغ والتدريس. توفّي حوالي العام 830هـ. بعد تعرّضه للسجن والتعذيب.

تتلمذ في العرفان على أيدي أساتذة، من أبرزهم شمس الدين الفناري، مؤلّف مصباح الأنس.

تبـرز أهمّيـة صائـن الدين بمـا يمثّل مـن حلقـة اتّصال فكريـة بين ابـن سينا والسهـروردي وابن عربي، فكان من أكثـر الأشخاص نجاحاً في التوفيق بين الحكمة المشّائيـة والإشراقية والطريقة العرفانية، قبل صـدر المتألهين. ترك صائن الدين العديد من الكتابات باللغتين العربية والفارسية، من أبرزها:

- تمهيد القواعد.
- المناهج في المنطق.
- الأربعينية.
- شرح فصوص الحكم.
- كتاب أسرار الصلاة.
- رسالة ضوء اللمعات.
- نفث المصدور.
- الأطوار الثلاثة، وغيرها.

الدرس الحادي عشر

مصطلحات علم العرفان

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى نبذة من أهم المصطلحات التي يستخدمها العارف.
2. يتعرّف إلى مراتب التوحيد الثالث بحسب رؤيا العارف.
3. يتعرّف إلى العوالم والحضرات الخمس بحسب التقسيم العرفاني لها.

المصطلحـات التي استخدمها العرفـاء كثيرة، بل يمكن القـول: إنّ من الصعب إحصاءهـا والوقوف على عددها. بعض هذه المصطلحات يحكي عن المفاهيم التي تشكّل عناوين النظريات والعقائد العرفانية، وهي أمور استخرجوها بواسطة الكشف والشهود وتأويل الآيات الشريفة. وبعضها الآخر عبارة عن حالات كان السالك يعيشها أثنـاء عملية السير والسلـوك، فكان يعبّر عنها بالأسلوب الذي يُرضي فهمه وإدراكه. الثالث منها، مجموعة من المصطلحات التي تتناول عناوين شتّى في السير والسلوك والتوجّـه نحـو الله، وكيفية طـيّ المقدّمات وأغلـب هذه المصطلحـات، استخرجها العرفاء بالتأمّل في الآيات والروايات.

هنـا سنحـاول الإطلالة على بعض المصطلحـات الهامّة عند العرفـاء وبأسلوب مختصر.

وحدة الوجود

يعتقد العرفاء أنّ ليس في الوجود سوى مؤثر واحد، وهو الله تعالى، لا بل ويضيفون إلـى ذلك أنّ ليس ثمّة موجود سواه تعالـى. وبهذا المعنـى، فالموجودات منحصرة فـي الله تعالـى، والوجود ليس لـه إلا معنى واحـد يصدق على الله تعالـى، أمّا باقي المخلوقات فهي تجلّيات ومظاهر للذّات الإلهية باختلاف مراتبها.

وعلى هذا الأساس، فوحدة الوجود عند العارف تعني أنّ الله تعالى هو الحقّ، وليس في العوالم كلّها إلا وجود واحد هو، الوجود الحقّ المطلق[1].

يؤكّد العرفاء على أنّ للتوحيد مراتبًا:

1. **توحيد العامّة:** ويسمّى التوحيد الفعلي وتوحيد أهل الشريعة. وهو التوحيد الظاهر الجلي عند عامّة المسلمين، من التشهّد بأن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، والذي به تُحقن الدماء والأموال، وتترتّب عليه أحكام ظاهر الإسلام. وتوحيد العامّة على نوعان:

الطائفة الأولى: طائفة عامّة الناس التي لا تقوم بحقّ الاستدلال النظري والعقلي.

الطائفة الثانية: التي تعتقد بالتوحيد من خلال الأدلّة العقلية والنظرية.

2. **توحيد الخاصّة:** ويسمّى التوحيد الوصفي وتوحيد أهل الطريقة. وهو أن يشاهد السالك بعد حصول التوحيد البرهاني بعين البصيرة القلبية أنّه الإله الواحد، وأنّه ليس في الوجود غيره، ولا فاعل سواه. وهذه الدرجة من التوحيد يصل إليها السالك من خلال مشاهدة الحقّ وإسقاط التعلّق بالأسباب الظاهرية، فيقطع النظر عن الأسباب والمسبّبات فلا يرى وسيلة إلا الحقّ، فيسلّم الأمر إليه بالكليّة، ويتّكل عليه في أموره، ويرضى بحكمه. وبالتالي من أهمّ آثار هذا النوع من التوحيد أن يصل السالك إلى مقام التوكل والتسليم والرضا. ويسمّى هذا النحو من التوحيد بـ «**توحيد إسقاط الأسباب الظاهرة**».
3. **توحيد خاصّة الخاصّة:** ويسمّى التوحيد الذاتي وتوحيد أهل الحقيقة. وهو التوحيد الذي يفنى فيه السالك بربّه، وهو مبنيّ على الفناء المحض، محواً وطمساً ومحقاً، والعبور عن جميع المقامات والمراتب والاعتبارات حتى

(1) المدرسي، محمد تقي، العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي، دار البيان العربي، بيروت، ط 3، 1992م، ص 150.

الوجود وتوابعه. وهو التوحيد الذي يقولون فيه: «**التوحيد إسقاط الإضافات**». فالعارف في هذه المرتبة من التوحيد لا يرى في الوجود إلا الله وحده، ويغيب غيره عن النظر بالكامل، وهو لا يفنى عن غيره فقط، بل عن نفسه أيضا، بسبب استغراقه في مشاهدة الحقّ، فهو - إذاً - فناءٌ عن كلّ ما سوى الحقّ تعالى[1].

وعند العرفاء التوحيد الحقيقي الذي ينادون به، والذي يحكي عن حقيقة العبودية لله تعالى، هو توحيد خاصّة الخاصّة.

الأعيان الثابتة

الأعيان الثابتة عبارة عن الصور العلمية للمظاهر والشؤون في العلم الإلهي.

يعتقد العرفاء أنّ لله شؤونًا باعتبار أنّه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وأنّ له بحسب تلك الشؤون أسماء وصفات، هي في الحقيقة أعيان المظاهر في المراتب على اختلافها. وبما أنّ هذه الأسماء والصفات موجودة في علم الله تعالى قبل أن تظهر في المراتب، فحقيقتها تعود إلى العلم؛ لذلك أطلق العرفاء الأعيان الثابتة على صور المظاهر عند وجودها في العلم.

يقول القيصري: «**اعلم أن للأسماء الإلهية صورًا معقولة في علمه تعالى، لأنّه تعالى عالم بذاته لذاته وأسمائه وصفاته. وتلك الصور العلمية من حيث إنّها عين الذات المتجلّية بتعيّن خاص ونسبة معيّنة هي المسماة بالأعيان الثابتة**[2].

ثمّ إنّ هذه الصور العلمية قد تكون كليّة، وقد تكون جزئية. يطلق الفلاسفة على كلّياتها عنوان الماهيّات والحقائق، وعلى جزئيّاتها الهويّات، أمّا كيف تحصل هذه

(1) راجع، الكاشاني، عبد الرزاق، موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامي، صحّحه وعلّق عليه مجيد هادي زاده، مؤسسة الطباعة والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط 1، 2000م، ص 198.

(2) شرح فصوص الحكم، ص 61.

الأعيـان؟ يعتقـد العرفـاء أنّها نتيجـة الفيـض الإلهـي الأوّل؛ إذ إنّ الله تعالى يُوجد الأعيان بدايةً بفيضه الأول (الأقدس)، وبالثاني (المقدس) يخرجها إلى الخارج[1].

العوالم والحضرات

العوالـم جمع عالـم، والعالم من العلامة، فهو كلّ ما يشار به إلى الله تعالى. وبما أنّ ما يدلّ على الله تعالى غير متناه، فالعوالم غير متناهية أيضًا.

أمّا الحضرات، فهي المراتب الكلّية للتجلّيات، وبعبارة أخرى هي مظاهر الحقائق المنسوبـة إلى الله تعالى. يعتقد القيصري أنّ الحضرات متناهية وهي خمس؛ أي إنّ مراتـب التجلّيات خمسة، وبمـا أنّ لكل حضرة عالم، لذلك لا بـدّ وأن تنتهي العوالم أيضًـا من هذه[2] الناحية. ومن هنا يتحدّث العرفاء عن العوالم الخمسة والحضرات الخمس. فالعوالم خمسة بتبع الحضرات، وهي على النحو الآتي:

وأوّل الحضـرات، حضرة الغيب المطلق، وعالمهـا عالم الأعيان الثابتة، ويقابلها حضـرة الشهـادة المطلقة، وعالمها عالـم الملك، والثالثة حضـرة الغيب المضاف إلى الغيـب وعالمها عالم الجبروت، والرابعة حضرة الغيـب المضاف إلى الشهادة، وعالمـه عالم المثال، والخامسة الحضرة الجامعة، وعالمها العالم الإنساني الجامع لجميع العوالم وما فيها.

الأحديّة والواحديّة

الأحدية عبارة عن الذات الإلهية التي ليس للأسماء ولا الصفات فيها ظهور. فهي اسـم لصرافة الذات المجرّدة عن الاعتبارات الحقّية والخلقية. وهي مرتبة لا يمكن لأحد إدراكها ولا الوصول إليها.

(1) المصدر نفسه.
(2) المصدر نفسه، ص 89.

الواحدية عبارة عن الذات الإلهية التي تظهر فيها الأسماء والصفات. فهي مرتبة يمكن معرفتها بما تمتلك من صفات وأسماء ظاهرة في المراتب[1].

الشريعة والطريقة والحقيقة

الشريعة والطريقة والحقيقة عند العرفاء مراتب لشيء واحد وهو الشرع[2]، وأمّا في التفريق بينها فيمكن القول أنّ الشريعة اسم موضوع للسبل الإلهية، مشتمل على أصولها وفروعها، والطريقة هي المسلك والأسلوب الأحسن الذي نأتي به بالشريعة. والحقيقة هي إثبات الشيء كشفًا وعيانًا؛ ولذلك قيل: «**الشريعة أنْ تعبده، والطريقة أنْ تحضره، والحقيقة أنْ تقوم به**»[3]. ويقال أيضًا: إنّ الشريعة هي تصديق أفعال الأنبياء قلبًا، والعمل بموجبها. والطريقة هي تحقيق أفعالهم وأخلاقهم فعلاً، والقيام بحقوقها. والحقيقة هي مشاهدة أحوالهم ذوقًا، والاتّصاف بها.

يعتقد العرفاء أنّ الشريعة مرتبة البداية، فما لم يصبح السالك متشرّعًا عاملاً بمقتضيات الشرع لا يمكنه الانتقال إلى مرتبة الطريقة؛ أي لا يمكنه الإتيان بالشرع بطريقة خاصّة، وهكذا بالنسبة إلى المرتبة الثالثة؛ أي الحقيقة.

الفيض الأقدس والفيض المقدّس

الفيض في اللغة يدلّ على جريان الشيء بسهولة، فيُقال: فاض الماء يفيض[4]. استخدم العرفاء الفيض للدلالة على فيضان التجلّيات (الموجودات) من الله تعالى، فهو العلّة التامّة لها، وخالقها.

(1) العجم، رفيق، مصطلحات التصوّف الإسلامي، مكتبة لبنان، ناشرون، ط 1، 1999، ص 12، 1018.
(2) حمية، خنجر، العرفان الشيعي، ص 361.
(3) المصدر نفسه، ص 361، نقلاً عن أسرار الشريعة للسيد حيدر الآملي.
(4) راجع: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الأعلام الإسلامي، 1404، ج 4، ص 465.

والفيض في اصطلاح العرفاء قسمان أقدس ومقدّس، والأول سابق على الثاني. بالفيض الأقدس تُعطى الاستعدادات للأشياء، و بالفيض المقدّس يُعطى ما يترتّب على هذه الاستعدادات. كما يقول القيصري: «**فإنّ الفيض الأقدس يُعطي الاستعداد للعين، والفيض المقدّس يُعطي ما يترتب على الاستعداد**»[1].

الفيض المقدّس هو تجلّي الذات الإلهية الأحدية لنفسها، وما يستتبع هذا التجلّي من ظهور استعدادتات الأشياء ولكن في الحضرة الإلهية. أمّا الفيض المقدّس فهو تجلّي الذات الإلهية الواحدة، ولكن ليس لنفسها، بل في صور الموجودات الخارجية؛ أي في حضرة الشهادة، ولكن على نحو ما هي عليه في ثبوتها في الحضرة الإلهية.

يقول القيصري: «**الفيض الأقدس، وهو عبارة عن التجلّي الحُبِّي الذاتي، الموجب لوجود الأشياء واستعداداتها في الحضرة العلمية**[2]، **ثمّ العينية**[3] **كما قال: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف»**. والفيض المقدّس، عبارة عن التجلّيات الأسمائية الموجبة لظهور ما يقتضيه استعدادات تلك الأعيان في الخارج. فالفيض المقدّس مترتب على الفيض الأقدس»[4].

(1) شرح الفصوص، ص774.
(2) هي الحضرة الغيبية الإلهية.
(3) هي عالم الشهادة والحضرة الخارجية.
(4) شرح فصوص الحكم:ص 336.

أسئلة الدرس

1. ما هو مقصود العارف من مصطلح «**الشريعة، الطريقة، الحقيقة**»؟
2. التوحيد عند العارف على ثلاثة درجات وأنحاء تحدث عنها.
3. العوالم والحضرات عند العارف خمسة، عددها، وتحدّث عنها.

المفاهيم الرئيسة

1. المصطلحات التي استخدمها العرفاء كثيرة، بل يمكن القول: إنّ من الصعب إحصاءها والوقوف على عددها.
2. بعض هذه المصطلحات يحكي عن المفاهيم التي تشكّل عناوين النظريات والعقائد العرفانية، وهي أمور استخرجوها بواسطة الكشف والشهود وتأويل الآيات الشريفة.
3. وبعضها الآخر عبارة عن حالات كان السالك يعيشها أثناء عملية السير والسلوك، فكان يعبّر عنها بالأسلوب الذي يُرضي فهمه وإدراكه.
4. الثالث منها، مجموعة من المصطلحات التي تتناول عناوين شتّى في السير والسلوك والتوجّه نحو الله، وكيفية طيّ المقدّمات وأغلب هذه المصطلحات، استخرجها العرفاء بالتأمّل في الآيات والروايات.
5. وحدة الوجود عند العارف تعني أنّ الله تعالى هو الحقّ، وليس في العوالم كلّها إلا وجود واحد هو، الوجود الحقّ المطلق.
6. الأعيان الثابتة عبارة عن الصور العلمية للمظاهر والشؤون في العلم الإلهي.
7. العوالم جمع عالم، والعالم من العلامة، فهو كلّ ما يشار به إلى الله تعالى. وبما أنّ ما يدلّ على الله تعالى غير متناه، فالعوالم غير متناهية أيضًا.

8. الأحديــة عبارة عن الذات الإلهية التي ليس للأسماء ولا الصفات فيها ظهور. والواحدية عبارة عن الذات الإلهية التي تظهر فيها الأسماء والصفات.

9. الشريعــة والطريقــة والحقيقة عنــد العرفاء مراتب لشيء واحــد وهو الشرع، وأمّــا في التفريق بينها فيمكن القــول أنّ الشريعة اسم موضوع للسبل الإلهية، مشتمل على أصولها وفروعها، والطريقة هي المسلك والأسلوب الأحسن الذي نأتي به بالشريعة. والحقيقة هي إثبات الشيء كشفًا وعيانًا.

10. الفيضــ في اللغة يــدلّ على جريان الشــيء بسهولة. والفيضــ في اصطلاح العرفاء قسمان أقدس ومقدّس، والأول سابق على الثاني.

الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّهُ

ولـد روح الله الموسوي الخميني في العشرين مـن جمادي الثانية سنة 1320 هـ، الموافـق 24 أيلـول 1902 م؛ في مدينة خمين إحدى مـدن المحافظة المركزية، في بيت عُرف بالعلم والتقوى والجهاد والهجرة، ومن أسرة تنتسب إلى الصديقة فاطمة الزهراء؛ ورث منها سجايا آباء وأجداد سعوا جاهدين جيلاً بعد جيل لهداية الناس، والنهل من المعارف الإلهيّة.

عاصـر المرحـوم آية الله السيـد مصطفى الموسـوي -والد الإمـام الخميني - المرحوم آية الله العظمى الميرزا الشيرازي رَضي اللّهُ عَنهُ. ودرس العلوم والمعارف الاسلاميـة في النجف الأشرف لعـدة سنوات، وبعد أن بلغ مرتبـة الاجتهاد عاد إلى إيران ليقيم في خمين ويصبح ملجأً وملاذاً وموجِّهاً للناس في أمور دينهم.

لـم يُتم «**روح الله**» الخمسة أشهر، حتى استشهـد والده في طريقه من خمين إلى أراك على يد قطاع الطرق والخوانين المدعومين من قبل عملاء السلطة، انتقاماً من مساعيه في إحقاق الحق والوقوف في وجه الطغاة والظلمة.

درسـ الإمام منذ نعومة أظفـاره ـ مستفيداً مما حباه الله مـن ذكاء متّقد، جانباً مـن المعارف الشائعة في عصره ومقدمات العلـوم والسطوح المعروفة في الحوزات الدينيـة، مثـل آداب اللغـة العربيـة والمنطق والفقـه والأصول؛ كما درسـ العروض والقوافي والفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية، ثم واصل دراسته مع العلوم المعنوية والعرفانية، ودرس أعلـى مستويات العرفان النظري والعملي، ولمدة ستة أعوام عند المرحوم آية الله الميرزا محمد علي الشاه آبادي أعلى الله مقاماتهم اجمعين.

بعـد وفاة آيـة الله العظمى الحائري اليـزدي، أثمرت الجهود التـي بذلها الإمام الخميني برفقه عدة من المجتهدين في الحوزة العلمية بقم في اقناع آية الله العظمى البروجـردي للمجيء إلى قم وتسلّم زعامة الحـوزة العلمية فيها. وخلال هذه الفترة

عُـرف الإمــام الخميني بصفة أحـد المدرسين والمجتهدين وأولي الــرأي في الفقه والأصــول والفلسفة والعرفان والأخــلاق. وكان زهده وورعه وتعبده وتقواه يتردد على لسان الخاصة والعامة.

وترك الإمام الخميني قدس سره العديد مــن المؤلفات الفقهية والأصولية والعرفانية نذكر منها:

1. تنقيح الأصول.
2. جواهر الأصول.
3. البيع.
4. كتاب الطهارة.
5. الآداب المعنوية للصلاة.
6. مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية.
7. شرح دعاء السحر.
8. الأربعون حديثاً.

مبادئ علم العرفان

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

1001068